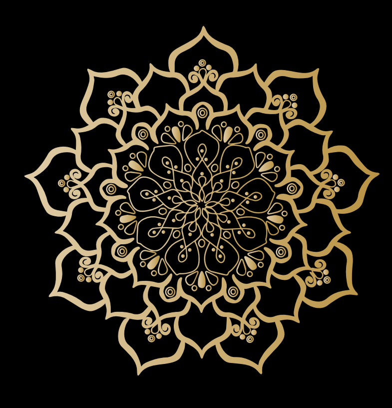
الموسوعة القرآنية

مِنهَاج المُسلِم
وأُسُس المجتَمع الفَاضِل
في القُرآنِ الكَريم



تأليف

عصام الدين عبد الحميد الهنامي



بيانات النشرة

عنوان الكتاب: منهاج المسلم وأسس المجتمع الفاضل في القرآن الكريم.

المؤلف: عصام الدين عبد الحميد الهنامي.

تاريخ النشرة: ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.

الإخراج الفني: مركز فائق للخدمات العلمية.



فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

مقدمة ٩

الموسوعة القرآنية ١٢

تمهيد ١٤

العبادات ١٤

أركان الإسلام الخمسة ١٤

أنواع العبادات ١٤

الطهارة ١٥

الوضوء ١٥

الغسل ١٦

التيمم ١٧

ملاحظات ١٩

الصلاة ٢٠

منزلة الصلاة ٢٠

إقامة الصلاة سمة المؤمنين ٢٤

ترك الصلاة من سمات المنافقين والكفار ٢٧

الموضوع	الصفحة

أوقات الصلاة ٢٩
صلاة الخوف أو الحرب.................................... ٣٢
صلاة الجمعة.. ٣٤
صلاة العيد ٣٥
صلاة النافلة ٣٥
الزكاة.. ٣٦
الألفاظ الدالة على الزكاة ٣٧
الإنفاق والقرض الحسن.................................... ٣٩
الإطعام... ٣٩
الحث على الإنفاق ٤١
شروط الصدقة المقبولة.................................... ٤٤
أنواع الزكاة ٤٩
الزكاة المفروضة.. ٤٩
ملاحظات ٥٠
المقدار الواجب إخراجه من المال ٥٢
زكاة الأنعام.. ٥٢
نصاب الإبل والمقدار الواجب إخراجه ٥٣
زكاة البقر ٥٣
زكاة الغنم ٥٣
زكاة الزروع والثمار....................................... ٥٤
زكاة التجارة ٥٥
زكاة الكفارات.. ٥٥

الموضوع	الصفحة
صدقة التطوع	٥٥
إخفاء الصدقة وإعلانها	٥٦
الصيام	٥٨
الصوم المفروض	٥٩
صوم الكفارات	٦٨
صوم التطوع	٦٨
الاعتكاف	٦٨
الحج	٧٠
بناء البيت	٧١
تعظيم حرمة المسجد الحرام	٧٤
الحج والعمرة	٧٦
كيفية العمرة	٧٧
أشهر الحج وبعض آدابه	٧٧
شعائر الحج	٧٨
الصفا والمروة	٧٩
الإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام	٨٠
المبيت بمنى لرمي الجمار	٨٢
الطواف بالبيت	٨٢
الهدي والقلائد	٨٣
محظورات الحج	٨٤
الذكر والدعاء	٨٧
الذكر	٨٧

الموضوع	الصفحة

أجر ذاكري الله ٩٢
أثر ذكر الله في نفوس المؤمنين ٩٣
طريقة الذكر ٩٨
الدعاء ٩٩
شروط الدعاء المستجاب ١٠٠
أدعية قرآنية ١٠٢
الاستغفار والتوبة ١١١
شروط قبول التوبة ١١٤
التشريعات الاجتماعية ١١٧
العلاقات الأسرية ١١٧
الإسلام يساعد على العفة ١٢٠
المحرمات من النساء ١٢٥
المهر ١٣٠
تعدد الزوجات ١٣٢
العلاقة بين الزوجين ١٣٥
تأديب الزوجة الناشز ١٣٧
نشوز الزوج ١٣٩
طرق إنهاء الزواج ١٤٢
الخلع ١٤٢
الإيلاء ١٤٣
الطلاق ١٤٥
عدد مرات الطلاق ١٤٨

الموضوع	الصفحة

العدة ١٥٠

عدة التي تحيض ١٥٠

عدة الحامل.. ١٥١

عدة المتوفى عنها زوجها ١٥٢

خطبة المتوفى عنها زوجها.. ١٥٣

حكم المطلقة قبل الدخول.. ١٥٤

حقوق المطلقات ١٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة : 71]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد:

فهذا هو الجزء الثاني من «الموسوعة القرآنية» ويتناول أسس المجتمع الفاضل كما تتضح من «القرآن الكريم»، وهذه الأسس تقوم على خمس دعائم هي: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ المال، وحفظ العرش، وحفظ العقل.. وهي - كما يقول الأصوليون - مقاصد الإسلام الخمسة التي نزل القرآن لتحقيقها.

أما حفظ الدين فيتمثل في أمرين

1- الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.. وهو ما يُسمى بالعقيدة.. وقد خصصتُ له كتابًا كاملاً يتناول أركان العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم، وهو الجزء الأول وقد صدر.

2- صلة العبد بربه.. ويتمثل في العبادات من صلاة، وزكاة، وصوم، وحج، وذكر، ودعاء، واستغفار، وتوبة.. وهي ما يتناوله الباب الأول من هذا الكتاب.

وأما حفظ النفس فيتمثل في نهي الله عن قتل النفس ، وتغليظه عقوبة القتل العمد الأخروية، وشرعه القصاص ممن قتل عمدًا، والدية وتحرير رقبة على من قتل خطأ، ونهيه كذلك عن الانتحار.

وأما حفظ المال فيتمثل في النهي عن أكل أموال الناس بالباطل، وتحريم الربا، والدعوة إلى توثيق الدَّين، ووضع عقوبة رادعة للسارق هي قطع اليد، وكذلك النهي عن الإسراف، وإنفاق المال في غير محله.. كما وضع الله عقوبة رادعة لمن يقطع الطريق على الناس لأخذ أموالهم، وترويعهم، أو قتلهم وهي «حد الحرابة».

وأما حفظ العِرض فقد صانه الله بوضع عقوبة لمن يتهم الأبرياء بالزنا ويفتري عليهم كذبًا، وأعد لهم عذابًا أليمًا، ولعنهم في الدنيا والآخرة، كما وضع عقوبة رادعة للزنا ، ونهى الناس أن يشيعوا الفاحشة في الذين آمنوا ، وتوعدهم بأشد العذاب، كما حث على الزواج، ودعا إلى العفة من لا يستطيع الزواج، وسد أمامه باب المغريات، بدعوة المرأة إلى التزام الحجاب، وعدم التبرج.

وأما حفظ العقل فقد نهى الله عن شرب الخمر، وغيرها من المسكرات التي تُذهب العقل، وبيَّن ما فيها من ضرر وإثم، وأنها رجس من عمل الشيطان.

وتفصيل هذه المقاصد الأربعة يتناوله الباب الثاني من هذا الكتاب وهو باب: التشريعات.

ويكمل هذه المقاصد الخمسة الدعوة إلى مكارم الأخلاق، واجتناب الرذائل والحث على السلوك الحميد، وقد خصصتُ لذلك الباب الأخير وهو باب الأخلاق والآداب الاجتماعية.

ومنهجي في الكتاب هو نفس المنهج الذي اتبعته في الكتاب السابق، وهو الاعتماد الكامل على ما ورد بشأن الموضوع الذي أعالجه في القرآن الكريم، فأبدأ بالتقديم للآيات التي تتضمن هذا الموضوع تقديمًا يشرحها شرحًا موجزًا يوضح معناها، ثم

أذكر نص الآيات، وإذا كان الموضوع في أكثر من سورة أذكر هذه الآيات.. إلا إذا زادت هذه الآيات زيادة كبيرة، فأكتفي بأمثلة منها، كما جاء في الحث على الصلاة والزكاة، وأستعين في شرحي لبعض الآيات بالأحاديث النبوية الشريفة.

وحرصًا من المؤلف والناشر على أن يكون الانتفاع بهذا الكتاب أعم وقراءته أيسر رأينا أن يصدر في أجزاء متتابعة فيخف حمله على القارئ ويسهل استيعابه، وقد يغريه ذلك على قراءته دفعة واحدة، وهذا هو الجزء الأول من الكتاب ويشمل الصلاة، والزكاة، والصيام.

واللهَ أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم ، وأن يرزقني التوفيق والسداد.. فهو الموفق والمستعان.

المؤلف

الموسوعة القرآنية

الموسوعة القرآنية كتاب يتناول الموضوعات الرئيسية في القرآن الكريم، فيجمع الآيات التي نزلت حول كل منها، ويتناولها بالشرح والتحليل، ويقع في عدة أجزاء:

الجزء الأول:

ويتناول أركان العقيدة الإسلامية في القرآن الكريم، وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر، وقدر صدر في 225 صفحة.

الجزء الثاني:

ويتناول دعائم المجتمع الفاضل كما أرادها القرآن الكريم، وتقوم على الصلة بين العبد وربه التي تمثلها العبادات من صلاة وزكاة... إلخ، وعلى التعاون بين أفراد المجتمع وشيوع المحبة والوئام بينهم، ويتمثل ذلك فيما فرضه الله في القرآن من أحكام تنظم هذا المجتمع وتنشر فيه «روح المجتمع الإسلامي» والإخاء عن طريق تشريعات اجتماعية تنظم العلاقة بين أفراد الأسرة والأقارب والجيران، وتشريعات مدنية تتحدث عن البيع والشراء والدَّين والربا وغيرها، وتشريعات جنائية تفرض عقوبات على من يخل بأمن المجتمع أو يعتدي على الأموال والأعراض عن طريق الحدود والقصاص، وتشريعات تحدد العلاقة بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى.. وأخيرًا بيان الفضائل التي دعا إليها القرآن الكريم والرذائل التي نهى عنها.

وقد رأينا تيسيرًا على القارئ وتعميمًا للنفع أن يصدر هذا الكتاب في أجزاء صغيرة.. وهذا هو الجزء الأول منها، ويتناول القسم الأول من العبادات، ويشمل الصلاة والزكاة والصوم، والحج والذكر والدعاء والاستغفار والتوبة، ثم بقية الأقسام.

الجزء الثالث:

ويتناول القصة في القرآن الكريم فيستعرض الآيات المشتملة على هذه القصة ويقارن بينها ويحللها.

الجزء الرابع:

السيرة النبوية في القرآن الكريم، فيتناول أحداثها بالشرح والتفصيل.

الجزء الخامس:

قصة الكون والكائنات في القرآن الكريم، ويتناول خلق الكون: السموات والأرض، والنجوم، والجبال، والبحار، والإنسان، والحيوان، والطير، والنباتات، والمعادن، وغيرها مما اهتم بذكره القرآن الكريم.

* * *

العبادات

تمهيد

أركان الإسلام الخمسة

شرع الله لعباده من العبادات ما يطهرهم ، ويقربهم إلى الله ، ويصلهم به ، والعبادات في الإسلام هي أركانه كما ذكر ذلك الحديث الشريف الذي يقول: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»، فالركن الأول وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هو الشرط الأساسي لقبول الأركان الأربعة ، وبدون الشهادتين لا قيمة لأي عبادة، ولن تجدي فتيلاً.

أنواع العبادات

والعبادات الأربعة منها ما هو خالص لوجه الله، لا ينال نفعه إلا صاحبه وحده حيث ينال رضوان الله وثوابه، ولا يمتد هذا النفع إلى الناس، وهي الصلاة والصيام، ومنها ما يكون أساسه نفع الناس، وهي الزكاة، فأساسها إنفاق المال على ذوي الحاجة من الفقراء والمساكين وغيرهم.

ومنها : ما ينال نفعه الناس بطريق غير مباشر وهي الحج، فأداؤه يحتاج إلى وسائط تعود على الآخرين بالنفع من استئجار وسائل المواصلات المختلفة، والإنفاق في مكة وفي غيرها من المدن فتروج فيها التجارة.

ومن هذه العبادات الفرض والنفل.. فكل عبادة منها - فيها فرض لابد من أدائه - كالصلوات الخمس، وصوم رمضان، وزكاة المال، وحج البيت مرة في العمر، وفيها التطوع كالصلوات النافلة، وصوم بعض الأيام في غير رمضان، والصدقة والحج مرة ثانية.

ولأبدأ بأول ركن من هذه العبادات وهو الصلاة.. والصلاة هي الركن الوحيد الذي يحتاج إلى شرط أساسي سابق عليه وهو الطهارة.

الطهارة:

وهي نوعان:

1- طهارة من نجاسة مادية، فينبغي للمصلي أن يتأكد من طهارة جسمه وطهارة ثوبه من أية نجاسة مادية أصابتهما قبل الدخول في الصلاة.

2- طهارة من نجاسة معنوية مثل نواقض الوضوء المعروفة، ويزيلها الوضوء، والجنابة ويزيلها الغسل، ويحل التيمم محل الوضوء والغسل عند عدم القدرة على استعمال الماء أو عدم وجود الماء.

الوضوء:

ذكر الله الوضوء في سورة المائدة، حيث دعا المسلمين إذا أرادوا القيام إلى الصلاة أن يغسلوا وجوههم، وأيديهم إلى المرافق، وأن يمسحوا برؤوسهم، وأن يغسلوا أرجلهم إلى الكعبين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾

(المائدة: 6).

وقد ذكرت الآية أركان الوضوء فقط، وهي التي لا يتم الوضوء إلا بها، ولكن هناك سنن للوضوء عرفت من قول الرسول (ﷺ) وفعله، وهي البدء بغسل اليدين إلى الرسغين، والمضمضة ثلاثًا، والاستنشاق ثلاثًا، وغسل الوجه ثلاثًا، وغسل اليدين إلى المرفقين ثلاثًا، ومسح الأذنين والرقبة.

ويفهم من قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أن الوضوء واجب عند كل صلاة، ولكن الرسول (ﷺ) بيَّن للمسلمين أن الوضوء الواحد يصلح لأكثر من صلاة في أكثر من وقت ما لم ينقضه ناقض من النواقض المعروفة.

وقد جعل إدخال الباء على «رؤوسكم» في قوله تعالى: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ﴾ كثيرًا من أئمة العلماء يفهمون أن المراد ليس مسح الرأس كله بل جزء منه يكفي، فقال بعضهم: يمسح الربع، وقال فريق: يمسح شعرات، وقال آخرون: يمسح الرأس كله.

الغسل:

وأما الغسل فقد ورد في هذه السورة حيث قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟﴾ بعد الحديث عن الوضوء مباشرة، ولكنه لم يذكر لفظ الغسل صراحة ولكنه ذكره صريحًا في سورة النساء، عندما نهى المسلمين عن الصلاة وهم سكارى إلى أن يعقلوا معنى ما يقولون، أي أن يزول أثر السكر عنهم – وذلك قبل تحريم الخمر – فقد نهاهم بعد ذلك عن أن يدخلوا المسجد وهم جنب ليصلوا إلا بعد أن يغتسلوا ولكن لهم أن يعبروه مرورًا إذا كان لا طريق لهم إلا المرور منه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟﴾ (النساء: 43).

التيمم:

وهو طهارة حكمية أي في حكم الطهارة الحقيقية لا في معناها، يلجأ إليه المسلم قبل دخول الصلاة إذا فقد القدرة على استعمال الماء، إما لعدم وجوده، أو لعدم استطاعة استعماله لمرض يؤثر الماء تأثيرًا سيئًا فيه، أو لبرد شديد يتأكد أن الماء يتلف نفسه لو استعمله.

ويستوي في التيمم أن يكون الذي يريد الصلاة محدثًا حدثًا أصغر أي انتقض وضوؤه أو محدثًا حدثًا أكبر بأن أصابته جنابة بسبب الجماع أو الاحتلام. وقد ورد ذكر التيمم عقب الحديث عن الاغتسال في سورة النساء حيث قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: 43).

ولأقف قليلاً عند بعض الكلمات: فمن أدب القرآن أنه لم يصرح بذكر اللفظ الصريح لإخراج الفضلات من الجسم، وإنما كنى عنه بـ(الغائط)، والغائط هو المنخفض من الأرض الواسع، وكانوا إذا أرادوا قضاء الحاجة ذهبوا إلى هذا المكان.

وكذلك كنايته عن الجماع أو مقدماته بـ(لامستم النساء)، وأصل التيمم القصد، فالآية تعني: اقصدوا صعيدًا طيبًا، والصعيد هو التراب، وكيفية التيمم - كما بينت الآية - أن يمسح وجهه ويديه من التراب، وذلك بأن يضع كفيه فوق تراب طاهر ثم ينفضها ثم يمسح بهما وجهه، ثم يضعها ثانية، وينفضهما ثم يمسح بهما يديه.

كما ورد الحديث عن التيمم في سورة المائدة عقب الحديث عن الوضوء والطهارة من الجنابة قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ

أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ (المائدة: 6).

ونلاحظ أن الحديث عن التيمم في السورتين متشابه تمامًا فيما عدا التعقيب عليه؛ ففي سورة النساء يذكر الله أنه عفو غفور، وفي سورة المائدة يبين أنه شرع التيمم لكيلا يكون على المؤمنين حرج.

* * *

ملاحظات:

1- من يسر الإسلام أن جعل بديلاً للوضوء أمرًا سهلاً وهو التيمم وهو - كما قلت - قصد أي مادة من جنس الأرض فيمسح بها وجهه ويديه، وذلك لأن الماء قد يصعب استخدامه، أو يتعذر فكان البديل أمرًا متاحًا.

2- لا يقولن أحد كيف يكون تلويث الوجه واليدين بالتراب أو غيره طهارة؟ لأن الأمر **أولاً** ليس فيه تلويث فالإنسان يضع يده على مادة جافة طاهرة ثم ينفض يديه ليزول عنهما ما علق بهما من هذه المادة، ثم يمسح وجهه ثم يديه، **وثانيًا**: الطهارة هنا طهارة معنوية، فعندما يمتثل الإنسان لأمر ربه ويتيمم فقد حقق الهدف المطلوب وهو طاعة الله عز وجل.

3- لقد شرع الوضوء أو التيمم ليشعر المسلم بأهمية الصلاة فهي عبادة لا يمكن الدخول فيها دون استعداد سابق، وعمل فيه تأهب لأداء الصلاة سواء بالوضوء أو التيمم - وما كان أيسر عند فقد الماء أن يؤمر المسلم بالصلاة دون وضوء ولكن ينتفي الغرض السابق، وهو التأهب النفسي للوقوف بين يدي الله.

4- يصح التيمم بملامسة مكان طاهر من الأرض أو من الجدار سواء أكان فيه تراب، أم ليس فيه.

* * *

الصلاة

منزلة الصلاة:

للصلاة منزلة رفيعة في الإسلام،وقد احتلت أكبر مساحة بين العبادات في القرآن الكريم، لا يقاربها في ذلك إلا الزكاة التي كثيرًا ما تأتي مقترنة بها.

ولا عجب في ذلك، فالصلاة هي أهم صلة تربط العبد بربه، وتقربه من ساحة عفوه، يقف المسلم لحظات عدة مرات في اليوم والليلة بين يدي ربه خاشعًا متضرعًا مستشعرًا عظمة خالقه، مقرًّا بربوبيته، يناجيه بكلامه، ويسبحه، ويحمده، ويكبره، وقد فرغ نفسه من كل مشاغل الدنيا، ليحظى بقرب خالق الدنيا، ومالك الملوك.

وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدعو إلى إقامة الصلاة، وتثني على المصلين، وتحذر تاركي الصلاة، وسأذكر بعضًا منها.. ولكن قبل عرض هذه الآيات أود أن أُذكِّر أن الصلاة شرعت في جميع الأديان، وحرص عليها الأنبياء جميعهم؛ فإبراهيم أبو الأنبياء كان يدعو الله – بعد بنائه البيت الحرام، ويقول في أثناء دعائه: إنه أسكن ذريته في هذا الوادي القفر بجوار بيته المحرم ليقيموا الصلاة ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (إبراهيم: 37) ثم يدعوه بعد ذلك أن يجعله هو وذريته مقيمين للصلاة، وأن يتقبل دعاءه ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ (إبراهيم: 40).

ويثني الله على إسماعيل، فيكون من ضمن ثنائه عليه أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ (مريم: 54، 55).

وعندما نجى الله إبراهيم من النار كافأه على جهاده في سبيل الدعوة إلى عبادة الله وحده، بأن وهب له إسحاق ويعقوب نافلة – أي زائدًا فوق ما طلبه إبراهيم، وهو أن يرزقه بغلام – وجعلهما من الصالحين، وجعله وذريته أئمة يهدون الناس إلى دين الله الحق، وأوحى إليهم أن يفعلوا الخير، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وكانوا لله عابدين.

قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ (الأنبياء: 72، 73).

وشعيب حينما يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، كانوا يسخرون منه، ويرجعون انحرافه عن دين آبائهم إلى حرصه على الصلاة ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ (هود: 87).

ويأمر الله موسى عندما كلمه أول مرة أن يقيم الصلاة تمجيدًا لله، وذلك بعد أن أعلن له: أنه هو الإله الأوحد المستحق للعبادة: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴾ (طه: 14).

وأوحى الله إلى موسى وأخيه هارون أن يتخذا لقومهما بيوتًا في مصر، وأن يجعلوا بيوتهم أماكن للصلاة يصلون فيها إذا لم يستطيعوا الصلاة، في أماكن الصلاة، وأن

يحرصوا دائمًا على إقامة الصلاة.

قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: 87).

وعندما بشرت الملائكة زكريا بيحيى كان قائمًا يصلي في المحراب، قال تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ (آل عمران: 87).

ولقمان يوصي ابنه بالصلاة فيقول له – كما يحكي عنه القرآن الكريم – ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ (لقمان: 17).

وعيسى وهو صبي في المهد يكلم الناس معلنًا أنه عبد الله، وأن الله آتاه الإنجيل وجعله نبيًّا، وبارك له حيثما حل، وأوصاه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ما دام حيًّا ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم: 30، 31).

وقد بدأت الصلاة في الإسلام منذ أوحى الله تعالى إلى نبيه (ﷺ) بالدعوة إليه، وإنذار عشيرته الأقربين، وبعد دخول نفر قليل في الإسلام، ولكنهم كانوا يستخفون في شعاب الجبال خوفًا من أن يطلع عليهم أحد من الكفار فيؤذيهم، وقد حذر الله أبا جهل من التعرض للرسول (ﷺ) في صلاته بالعذاب الشديد المخزي في الآخرة حيث يجر من ناصيته إلى النار تلك الناصية الكاذبة الخاطئة – والمراد صاحبها – ويتحداه الله أن يدعو ناديه أي أنصاره لعقاب محمد – كما زعم – إذا استمر في صلاته فإن الله سيدعو له يوم القيامة الزبانية وهم الملائكة الغلاظ الشداد الذين يحرسون جهنم.

ثم يأمر الله نبيه (ﷺ) أن يصلي كما يشاء، ويتقرب إلى الله ولا يبالي أحدًا ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (العلق: 9– 19).

ولكن هذه الصلاة لم تكن مفروضة عليهم، ولم يكن لها نفس المواقيت التي نعرفها، ولا عدد الركعات التي يصليها المسلمون بعد فرض الصلاة عليهم، وذلك – كما هو معروف – في ليلة الإسراء – أي بعد بدء الوحي بأكثر من عشر سنوات.

والآن أذكر بعض الآيات التي تحث المسلمين على إقامة الصلاة يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: 153).

ويعد في آية أخرى المؤمنين الذين يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة بالأجر العظيم يوم القيامة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: 277).

وفي سورة الأنعام يأمرهم بإقامة الصلاة وتقوى الله الذي سيجمعهم يوم القيامة للحساب: ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنعام: 72).

ويدعو الله في سورة الحج المؤمنين أن يركعوا لله ويسجدوا، وأن يعبدوا الله حق عبادته، ويفعلوا الخير لعلهم يفوزون، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الحج: 77).

وفي الآية التالية في ختام السورة يأمر المسلمين بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة

والاعتصام بالله الذي هو مولاهم وناصرهم، نعم المولى ونعم النصير هو ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ (الحج: 78).

وفي سورة الروم يدعو الله المسلمين أن يستمسكوا بدين الإسلام، فهو الدين القيم دين الفطرة وأن يكونوا كثيري الرجوع إلى الله، وأن يتقوه، وأن يقيموا الصلاة، وألا يكونوا من المشركين ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(الروم: 30، 31).

إقامة الصلاة سمة المؤمنين:

مدح الله المؤمنين المتقين بصفات منها: إقامة الصلاة، ولا نكاد نجد آيات وصفت المؤمنين إلا كان من أهم الصفات إقامة الصلاة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

(البقرة: 3-1) .

وقوله تعالى في وصف أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول (ﷺ) بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويؤمنون بالله واليوم الآخر وأن لهم بذلك أجرًا عظيمًا من الله ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: 162).

وهنا ملاحظة جديرة بالاعتبار وهي أن «المقيمين الصلاة» جاءت منصوبة وكان

حقها الرفع لأنها معطوفة على مرفوع فيقال: «المقيمون الصلاة» ولكن النحاة أجابوا عن ذلك بأنها ليست معطوفة على ما قبلها، وإنما هي مفعول به لفعل محذوف تقديره «أمدح» وكأن الله أراد أن يلفت الانتباه إلى أهمية الصلاة فجاء بها هكذا.

وعندما دعا الله ضعاف الإيمان الذين يوالوا الكافرين خوفًا من أن تدور عليهم الدائرة – أن يوالوا الله ورسوله والذين آمنوا، وصف الذين آمنوا بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، ثم ختم الآية بتأكيد صلاتهم مرة أخرى فقال: «وهم راكعون» قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾ (المائدة: 55).

ووصف المؤمنين في سورة الأنفال بأنهم هم الذين تملأ قلوبهم الخشية عند ذكر الله ويزداد إيمانهم عند سماع القرآن، ويتوكلون على الله، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله فهؤلاء هم المؤمنون الحقيقيون، ولهم عند الله درجات عالية، ومغفرة لذنوبهم، ورزق كريم في الجنة: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

(الأنفال: 3، 4).

وفي ذكر سمات المؤمنين التي تميزهم عن المنافقين ذكر الله أن المؤمنين يتميزون بأنهم يناصر بعضهم بعضًا، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة ويطيعون ما يأمر الله ورسوله به، ثم يعدهم الله بأنه سينزل رحمته عليهم ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 71).

ويدعو الله رسوله أن يبشر المخبتين - أي المطيعين المتواضعين - برضا الله عنهم ثم يصف هؤلاء المخبتين بأنهم هم الذين تملأ الخشية قلوبهم من ذكر الله، والذين يصبرون على أية مصيبة تصيبهم، والذين يقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (الحج: 34- 35).

وفي سورة النور يتحدث الله عن بيوته في الأرض وهي المساجد التي يُذكر فيها اسمه، فيذكر أن الذين يسبحونه فيها صباحًا ومساءً هم رجال أخلصوا قلوبهم لله فلا يشغلهم شاغل من بيع أو تجارة عن ذكر الله وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة لأنهم يخافون يوم العرض على الله، وهو اليوم الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار من الخوف ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (النور: 36، 37).

وفي سورة «المؤمنون» قرر الله أن الفلاح والفوز مكتوب للمؤمنين المتصفين بصفات الفضيلة بدأها بالخشوع في الصلاة: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ (المؤمنون: 1، 2) وختمها بالمحافظة على الصلاة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (المؤمنون: 9) فكان هذا تقريرًا بأهمية الصلاة حيث جعلها إطارًا يحيط بسائر الصفات التي وعد الله أصحابها بميراث الفردوس، والخلود فيه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (المؤمنون: 10، 11).

وكذلك فعل في سورة المعارج عندما استثنى من الجزع عند الشر، والبخل والشح عند وجود الخير المصلين الذين وصفهم بمداومة الصلاة ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ

هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ (المعارج: 19 – 23)، وبعد عدة صفات من صفات الخير ختمها بالمحافظة على الصلاة ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (المعارج: 34) وجدير بالاعتبار أن لفظ المصلين في أول الآيات حل محل لفظ «المؤمنين» ليشعرنا بأن الصلاة تساوي الإيمان تمامًا.

وأكتفي بهذا القدر من الآيات التي تجعل الصلاة هي القاسم المشترك بين كل صفات المؤمنين.

وأود أن أسجل ملاحظة هامة وهي: أن الله يستخدم – في معظم آيات الصلاة – لفظ «أقام» ومشتقاته فيقول: أقم، أقيموا، أقاموا، المقيمين وهكذا، ولم يقل قط: أدوا الصلاة، وذلك ليبين أنه ليس المطلوب مجرد الصلاة بل الإتيان بها على أكمل وجه من خشوع وطمأنينة وهذا ما يعنيه لفظ «أقم».

ترك الصلاة من سمات المنافقين والكفار:

وكما أن القرآن بيّن أن إقامة الصلاة من سمات المؤمنين، كذلك بيّن أن تركها أو التكاسل في أدائها من سمات المنافقين؛ فقد ذكر الله – في سورة النساء – من سمات المنافقين أنهم يحاولون خداع الله بتظاهرهم بالإيمان وإبطانهم الكفر ولكن الله يعلم سرهم ونجواهم، ومن باب التظاهر بالإيمان أنهم يؤدون الصلاة مع المؤمنين، ولكن لأنهم لا يؤمنون بما يفعلوه يذهبون إليها مضطرين وقد تملّكهم الكسل: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (النساء: 142).

وفي سورة «التوبة» يبين الله أن سبب عدم قبول الرسول (ﷺ) أخذ الصدقة من

المنافقين هو كفرهم بالله وبرسوله، وأنهم لا يذهبون إلى الصلاة إلا مرغمين يملؤهم الكسل، وإذا اضطروا إلى الإنفاق في سبيل الله أنفقوا وهم كارهون لأنهم غير مؤمنين ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ (التوبة: 54).

وبيّن الله أن من سمات الكافرين من أهل الكتاب والمشركين السخرية من الأذان للصلاة، فيتغامزون ويتضاحكون عند سماعه، وما ذلك إلا بسبب ضعف تفكيرهم وسخافة عقولهم ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (المائدة: 58) ولذلك اشترط الله لوضع الحرب عن المشركين بعد البراءة منهم أن يتوبوا إلى الله، فيؤمنون ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: 5) وفي آية أخرى من نفس السورة: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: 11).

وعندما ذكر الله بعض الرسل وأشاد بهم، وذكر حرصهم على الصلاة ذكر أن الخلف من بعدهم تركوا الصلاة، وساروا وراء شهواتهم، وسوف يلقون جزاء انحرافهم؛ قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ (مريم: 59).

ويذكر الله من سمات الكافر أيضًا أنه لا يصدق بالدين، ولا يصلي ولكن يكذب الرسول ويعرض عن دعوته، ثم يذهب إلى أهله معجبًا بنفسه مختالاً، فسحقًا له وهلاكًا: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴾ (القيامة: 31- 35).

وقد توعد الله الكافرين بدخول سقر لأسباب أولها ترك الصلاة، فعندما يسأل أصحاب اليمين – وهم يتنعمون في جنتهم – المجرمين عن سبب دخولهم سقر – من أسماء النار – كان جوابهم أنهم لم يكونوا من المصلين، ولم يشاركوا في فعل الخير بإطعام المساكين: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ (المدثر: 38– 44).

وفي سورة الماعون جعل الله الويل – وهو الهلاك أي العذاب الشديد وقيل: اسم واد في جهنم – للذين تجب عليهم الصلاة، فيلهون عنها، ويتشاغلون بغيرها من أمور الدنيا، وذلك لعدم إيمانهم: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (الماعون: 4، 5).

أوقات الصلاة:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ (النساء: 103) أي أن الله جعل الصلاة فريضة محددًا وقتها لا يصح أن تتقدمه، ويعاقب مؤخرها عن وقتها دون عذر، وأوقات الصلاة – كما يعرفها جميع المسلمين هي الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ولكن القرآن لم يذكر هذه الأوقات وحدودها بل أوحى الله إلى رسوله (ﷺ) تفصيل ذلك عن طريق جبريل الذي نزله فأمَّه في الصلوات الخمس في أوقاتها التي يعرفها المسلمون؛ فقد روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله (ﷺ) قال: «نزل جبريل فأمَّني فصليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه، ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس صلوات» وهي الصلوات الخمس المفروضة.

لكن القرآن ذكر صلاتين صراحة هما: صلاة الفجر، وصلاة العشاء وذلك عندما أمر المسلمين أن يعلموا مماليكهم وأبناءهم الصغار أن يستأذنوا عليهم عند الدخول إلى أماكن نومهم ثلاث مرات كل يوم قبل صلاة الفجر، وفي أثناء فترة القيلولة في الظهيرة، وبعد صلاة العشاء، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِ ﴾ (النور: 58).

وقد ضمن صلاة الظهر والمغرب في قوله تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ فدلوك الشمس هو زوالها عن كبد السماء وهو وقت الظهر، وغسق الليل بداية إظلامه وهو وقت صلاة المغرب وقد يدخل العصر والعشاء في ذلك، ثم ذكر الله بعد ذلك صلاة الفجر، ولكن سماها قرآنًا، لأن الصلاة لا تجوز إلا بقراءة القرآن وقد حث الله على أدائها في وقتها، لأن الملائكة تشهدها كما قال (ﷺ): «تشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار» قال تعالى: ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ (الإسراء: 78).

ويمكن أن نستنبط صلاة العصر، من قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ (البقرة: 238) فالصلاة الوسطى في رأي الكثير من العلماء هي صلاة العصر، لأنها تقع بين صلاتي الفجر والظهر وبين المغرب والعشاء، وقد رووا أحاديث عن الرسول (ﷺ) أنها صلاة العصر، ومنها قوله (ﷺ): «الصلاة الوسطى هي صلاة العصر».

وخلاصة القول:

إن القرآن لم يحدد مواقيت الصلاة، ولم يحدد أسماءها كلها كما شرحت، كما لم يحدد

القرآن تفصيل الصلاة من عدد الركعات في كل صلاة، وكيفيتها من قيام وركوع وسجود، ولكن ترك ذلك للرسول (ﷺ) يعلمه للمسلمين، فالصلاة عبادة عملية تحتاج إلى ممارسة فعلية ومشاهدة أكثر من تفصيل ذلك بالقول.

ولكن القرآن ذكر الركوع والسجود في كثير من آياته، وقد ذكرت بعض ذلك فيما سبق، وقد أضيف إليه قوله تعالى في وصف عباد الرحمن: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ (الفرقان: 64).

وقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الشعراء: 219).

وجاء في وصف محمد رسول الله (ﷺ) وأصحابه في التوراة كما حكى عنهم القرآن : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ (الفتح: 29).

استقبال القبلة:

من شروط صحة الصلاة استقبال المصلي القبلة في الصلاة، وذلك بالتوجه نحو المسجد الحرام بمكة، وقد كان الله أمر رسوله (ﷺ) أن يجعل قبلته في صلاته نحو المسجد الأقصى في القدس، فكان الرسول (ﷺ) وهو في مكة يجعل الكعبة بينه وبين المسجد الأقصى في صلاته، إيثارًا للجمع بين المكانين الذين قدسهما الله ولكنه لما هاجر إلى المدينة لم يكن يستطيع ذلك، فشق عليه ترك الاتجاه للكعبة، وأخذ يتضرع إلى الله أن يجعل قبلته الكعبة، فاستجاب الله دعاءه، وصارت قبلة المسلمين في الصلاة الكعبة؛ قال تعالى: ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟

وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ (البقرة: 144).

وقد ثار جدل حول هذا الأمر من اليهود والمنافقين، ورد عليهم القرآن مفندًا مزاعمهم.

صلاة الخوف أو الحرب:

لكن صلاة واحدة هي التي عني القرآن بتفصيلها، تلك هي صلاة الحرب، وقاس عليها الفقهاء صلاة الخوف، أي كل صلاة تحدث في ظروف خطر يقتضي أن تكون هناك مجموعة تراقب الخطر، ومجموعة تصلي.

ولما كانت صلاة الجماعة هي الفضلى، والناس حريصون عليها، والله سبحانه يحب لهم أن يصلوا جماعة، ولما كان الإمام هو الرسول (ﷺ)، وكل المسلمين حريصون على أن يكون إمامهم، ولما كانت الصلاة – أي صلاة مفروضة- لا تؤدى إلا مرة واحدة استوجب ذلك عملية تنظيمية في الصلاة تمكن المسلمين المحاربين جميعًا من صلاة الجماعة، والائتمام بالرسول (ﷺ) ومراقبة العدو، وذلك بأن يقسم المحاربون ويقف القسم الآخر الذي لم يصل من خلف المصلين يحرسهم، فإذا صلى القسم الأول ركعة ترك مكانه، وذهب للحراسة، وجاء القسم الذي لم يصل ليصلي الركعة الأخيرة خلف الرسول (ﷺ) [الصلاة في السفر ركعتان فقط] ثم يسلم الرسول (ﷺ) بعد تمامه الركعة الأخيرة، ويذهب القسم الأخير للحراسة ويعود القسم الأول ليتموا صلاتهم، ثم يذهبوا للحراسة، ليعود القسم الأخير ليتموا صلاتهم أيضًا.

وقد نبَّه الله المصلين والحراس أن يكونوا في غاية الحذر، فلا يتخلوا أبدًا عن أسلحتهم وأمتعتهم، لأن الكفار يودون لهم أن يغفلوا عنها، فينقضوا عليهم

انقضاضة واحدة تحقق أهداف الكافرين، ولكن الله مع ذلك ييسر لهم الأمر، فإذا كانت ظروفهم صعبة بسبب هطول مطر يعوق حركتهم أو إصابة بعضهم بالمرض، فلا بأس من وضع أسلحتهم أمامهم، ولكن لا ينبغي ترك الحذر في جميع الأحوال:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ (النساء: 102).

ما دلالة هذا؟

دلالته أن الصلاة في نظر الإسلام على أكبر جانب من الأهمية، ولا يجوز تركها أو تأخيرها تحت أي ظرف مهما بلغت خطورته، ومن دلالاته أيضًا أن صلاة الجماعة مرغوبة، فعلى الرغم من ظروف الحرب فإن الله يدعو إليها، وينظمها بما يلائم ظروف الحرب، فإذا اشتد الخوف بالمسلمين سواء أكان ذلك من حرب أو خطر داهم غيرها يعفى المسلمون من صلاة الجماعة، ومن الاطمئنان المطلوب في الصلاة، ولكن لايمكن إعفاؤهم من الصلاة نفسها، فهي ركن لا يمكن تركه تحت أي ظرف، ولذلك دعا الله المسلمين عند اشتداد الخطر أن يصلي المسلم بالطريقة التي يستطيعها، سواء أكان راجلاً – أي يمشي على رجليه – أم راكبًا دابة، ويحرص على استقبال القبلة والإتيان بأركان الصلاة على قدر المستطاع، فإذا جاء الأمن فعلى المسلمين الالتزام بأداء الصلاة وإقامتها على خير وجه.

قال تعالى في سورة النساء معقبًا على صلاة الحرب بأنها عندما تؤدى فعلى المسلمين أن يذكروا الله بالطريقة التي تلائم ظروفهم من قيام أو قعود أو اضطجاع فإذا ما اطمأنوا وابتعد الخطر عنهم فعليهم أن يؤدوا الصلاة على خير وجه مستوفين أركانها وسننها: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ (النساء: 103).

صلاة الجمعة:

حثَّ الله على صلاة الجمعة، ولكن القرآن لم يذكر كيفيتها، ولا وقتها، واكتفى بدعوة المسلمين إلى السعي إليها، وترك البيع [وقد خصَّ البيع – ويشمل كل أنواع المبادلات التجارية، لأنه كان أهم ما يشغلهم] وبيَّن أن السعي إلى صلاة الجمعة خير لهم من البيع وغيره لو عرفوا الحقيقة، ثم أباح لهم بعد الفراغ من صلاة الجمعة أن يعملوا ما يشاءون من عمل يدر عليهم الرزق، وأن يستمروا في الإكثار من ذكر الله كي يتحقق لهم الفوز في الآخرة.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: 9، 10).

نلاحظ أن الله لم يجعل يوم الجمعة يوم امتناع عن العمل كما حدث مع اليهود في يوم السبت، لأن الإسلام دين الحياة، والدين الموافق للطبيعة البشرية التي تحرص على تحقيق الكسب المادي في كل وقت، ولكن القرآن مع ذلك طلب من المسلمين ألا يكفوا عن ذكر الله، بل يكثروا منها، وهكذا يجمع الإسلام بين الدين والدنيا.

صلاة العيد:

لم يذكر القرآن صلاة العيدين، ولكنه أشار إلى صلاة عيد الأضحى في (سورة الكوثر) عندما امتن على رسوله (ﷺ) بإعطائه الكوثر وهو نهر في الجنة، أو الخير الكثير من النبوة والقرآن والشفاعة – ثم طلب منه أن يصلي ثم ينحر الأضحية شكرًا على ما أعطاه الله، ففهم من ذلك أن المراد بالصلاة هي صلاة عيد الأضحى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ (الكوثر: 1، 2).

صلاة النافلة:

والنافلة معناها الزائدة، فهي صلاة زائدة على الصلاة المكتوبة، وقد حث الله عز وجل رسوله (ﷺ) على الحرص على صلاة النافلة في الليل، ويطلق عليها التهجد، وذلك لينال (ﷺ) أعظم مقام عند الله يحمده الخلق جميعًا. قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (الإسراء: 79).

والرسول (ﷺ) فيه الأسوة الحسنة لنا، وهو مثلنا الأعلى فعلينا أن نقتدي به، وقد وصف الله عباد الرحمن بأنهم يبيتون الليل سجدًا وقيامًا – كما ذكرت – ولا تقتصر النوافل على صلاة الليل بل تشمل كل صلاة زائدة على الفرض ليلاً ونهارًا، وإن كانت صلاة الليل أكثر ثوابًا لأن المسلم يترك نومه وراحته ليتقرب إلى الله، ولذلك أثنى الله على المتقين، وأدخلهم جنات وعيونًا لأنهم كانوا طول الليل في العبادة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذاريات: 15 – 18).

* * *

الزكاة

وهي الركن الثالث من أركان الإسلام، بعد الشهادتين والصلاة، وهي قرينة الصلاة، فلا تكاد تذكر الصلاة كمسوغ لرضا الله ودخول الجنة، إلا واقترنت بها الزكاة - كما بينت وكما ورد في الآيات السابقة - وقد استند أبو بكر رضي الله عنه إلى ذلك في قتال المرتدين، عندما جادله عمر في أمر قتالهم، فقال له: كيف تقاتل الناس وقد شهدوا أن لا إله إلا الله، وقد قال رسول الله (ﷺ): «من قالها فقد عصم مني دمه وماله إلا بحقه وحسابه على الله» فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة».

والزكاة في اللغة معناها: النماء والتطهير أيضًا فكأن الله يعد المزكين الذين ينفقون من مالهم، أن المال لا ينقص بسبب هذا الإنفاق بل سينمو ويزداد.. إن لم يكن بالزيادة المحسوسة فبالبركة التي يجعلها الله في هذا المال فتمنع عنه الآفات، وعن صاحبه المصائب التي تضطره إلى إنفاقه، وقد قال تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (التوبة: 103).

وقال تعالى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ (البقرة: 276) فالربا معناه الزيادة لأن المرابي يقرض ماله إلى أجل ثم يسترده زائدًا عن الأصل، ولكن الله قرر أنه سيمحق الأصل والزيادة عقابًا للمرابي على استغلاله حاجة المحتاج، بينما وعد أنه سيزيد مال المتصدق - مع أنه قد نقص بالصدقة، بأن يبارك فيه كما قلت - ومثل ذلك

قوله تعالى – في سورة الروم – ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ (الروم: 39)، ومعنى الآية أن المتعاملين بالربا لتزداد أموالهم بين الناس، لن يكون لهم أجر عند الله، وأما الذين يتصدقون يريدون وجه الله فأولئك هم الذين يضاعف الله ثوابهم.

الألفاظ الدالة على الزكاة:

استخدم القرآن الكريم ألفاظًا تدل على معنى الزكاة وأولها لفظ الزكاة التي ذكرت آيات عديدة لها، ثم الصدقة والقرض الحسن، والإنفاق في سبيل الله، والإطعام.

ونلاحظ أن لفظ «الزكاة» لم يأت في القرآن إلا مقترنًا بالصلاة، ويكون الفعل المقترن بالصلاة مشتقًّا من الإقامة، ومع الزكاة يكون مشتقًّا من الإيتاء كما مر بنا في الآيات السابقة في «الصلاة» إلا في أربعة مواضع وردت فيها الزكاة مستقلة عن الصلاة:

في قوله تعالى – وهو يتحدث عن رحمته التي وسعت كل شيء، وأنه سيمنحها للمتقين والمؤتين الزكاة ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ (الأعراف: 156) والآية المذكورة سابقًا ﴿ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ ﴾ وقوله تعالى – في صفات المؤمنين الذين فازوا بالفردوس ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾ (المؤمنون: 4) وإن كانت الصلاة قد سبقتها في الآية الثانية من سورة المؤمنون ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ وقوله في سورة فصلت: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ (فصلت: 6، 7) بينما وردت مقترنة بالصلاة أكثر من عشرين مرة.

الصدقة.

وقد ورد هذا اللفظ مفردًا كما في قوله تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ (البقرة: 263) وجاء جمعًا كالآية السابقة ﴿ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ (البقرة: 276) وكما في قوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ (البقرة: 271) وجاء على صيغة اسم الفاعل مجموعًا جمعًا سالمًا كما في قوله تعالى – في أثناء ذكر المستحقين للأجر العظيم عند الله ﴿ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾ (الأحزاب: 35) وقد تدغم التاء في الصاد فتصير صادًا مشددة كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: 18).

وقد جاء في صورة الفعل بأنواعه الثلاثة (تَصَدَّق، يتصدَّق، تَصَّدَّق) فعندما أوجب الله القصاص على بني إسرائيل حثهم على العفو واعتبر ذلك صدقة منهم؛ قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ (المائدة: 45).

وقد حث الله في سورة «المنافقون» المؤمنين على التصدق قبل أن يفوت الأوان ويأتي يوم الحساب فيندم الذي لم يتصدق، ويتمنى لو أن الله يؤخره حتى يتصدق ويكون من الصالحين: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [أي أتصدق] (المنافقون: 10).

وفي سورة يوسف يطلب منه إخوته وهم لا يعرفونه أن يقبل بضاعتهم الرديئة ويوفي لهم الكيل فذلك صدقة، ويحثونه على ذلك ببيان الجزاء العظيم للمتصدق عند

الله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف: 88).

الإنفاق والقرض الحسن:

كثيرة هي الآيات التي تحض المسلمين على الإنفاق في سبيل الله وفي الخير، وتستخدم لفظ الإنفاق ومشتقاته من الفعل بصوره الثلاثة ومن اسم الفاعل كما سأذكر بعد ذلك، وكذلك تستخدم لفظ «القرض الحسن» والقرض - كما هو معروف تسليف شخص بعض المال إلى أجل، ووصفه بالحسن ليدل على أن المقرض سلف الشخص المال دون أن يأخذ منه أية زيادة على الأصل، وقد وعد الله المقرضين القرض الحسن بمضاعفة الأجر لهم كما في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: 11).

الإطعام:

وقد خصَّ الله من أنواع الإنفاق إطعام المسكين، فوعد الله الذين يطعمون المسكين وغيره من المحتاجين بالجنة؛ فقد وصف بعض المؤمنين الذين جزاهم الجنة بأنهم كانوا يطعمون الطعام مع حبهم له المسكين واليتيم والأسير، وكانوا يفعلون ذلك ابتغاء وجه الله ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (الإنسان: 8 - 12).

كما ذكر الله أن أسباب دخول الكافرين النار أنهم كانوا لا يطعمون المسكين، بل لا يحضون الناس على إطعامه ففي سورة المدثر يسأل أصحاب اليمين المجرمين المعذبين في الآخرة عن سبب دخولهم النار فيجيبون: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾

وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴾ (المدثر: 43، 44).

وفي سورة الحاقة يبين الله سبب تعذيب الذي أخذ كتابه بشماله – وهو الكافر – وأمر الملائكة أن يضعوا الأغلال في عنقه، وقذفه في جهنم – وذلك لأنه لم يكن يؤمن بالله العظيم، ولا يحث الناس على إطعام المسكين – قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ (الحاقة: 30 – 34).

ولنلاحظ أن الله جعل الحض على طعام المسكين مساويًا للإيمان بالله العظيم.

وفي سورة الفجر يزجر الله الكافرين – وهم يشتكون بأن الله قد أهانهم بالتقتير عليهم في الرزق بأنهم لم يكرموا اليتيم، ولم يكن يحض بعضهم بعضًا على إطعام المسكين ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ (البقرة: 16 – 18).

وفي سورة «البلد» يذكر الله أن الكافر لم يستطع اقتحام عقبة الحساب في الآخرة التي كان يمكن اجتيازها بتحرير عبد من ربقة العبودية، أو إطعام يتيم من أقرانه، أو مسكين ألصقه الفقر بالتراب عندما يشتد الجوع بالناس: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾ (البلد: 11 – 16).

وفي سورة الماعون يبين الله أن من سمات الذي يكذب بالدين – أي يوم القيامة – أنه ينهر اليتيم ، ولا يحث غيره على إطعام المسكين ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴾ (الماعون: 1 – 3).

وأتوقف قليلاً عند التعبير القرآني: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ فالقرآن لا يكتفي بالإطعام – وإن كان هذا حسنًا في حد ذاته، وله جزاؤه عند الله – ولكنه يريد تكوين رأي عام يكون متحمسًا لبر المساكين وإطعامهم.

كما جعل الله كفارة بعض الذنوب إطعام مسكين أو أكثر كما سأبين.

الحث على الإنفاق:

حث الله المسلمين على الإنفاق في آيات كثيرة، ورغبهم في الصدقة، وبين الجزاء العظيم الذي سينال المتصدقين، وقد بين لهم مع ذلك أن هذا الإنفاق ليس من مال اكتسبوه بجدهم وإرادتهم، بل هو رزق من الله أعطاهم إياه بمشيئته ليبتليهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: 3).

ثم يبين الله الأمر بصورة أوضح فيذكر أن المال قد وضعه الله في يد بعض عباده على طريقة الاستخلاف، فهم خلفاء الله في هذا المال، وعلى الخليفة – أو الوكيل – أن يضع المال حيث يريد الذي استخلفه وهو الله سبحانه. قال تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ (الحديد: 7).

ولنلاحظ أن جعل الإنفاق قرين الإيمان بالله ورسوله، وأخيرًا يذكر الله أن هذا المال سيئول إليه في نهاية الأمر عندما يفنى المالكون، فالله هو الذي يرث كل ما في السموات والأرض، فلماذا لا ينفقون وقد عرفوا هذه الحقيقة؟ قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الحديد: 10)، كما بيّن الله لعباده أن الصدقة التي يقدمونها للفقراء ليست تفضلاً منهم عليهم، بل هي حق لهم، لأن المال مال الله، وقد أمر بإعطاء جزء منه لعباده الفقراء، فأصبح حقًّا معلومًا لهم، وقد ذكر

الله ذلك في سورتين: الأولى الذاريات، والثانية المعارج.

ذكر الله في سورة الذاريات: أن من أسباب استحقاق المتقين الجنة أنهم كانوا يقرون بوجود حق معلوم للفقراء في أموالهم، فكانوا يعطونه إياهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: 15 – 19).

وفي سورة المعارج يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ (المعارج: 19– 25).

وأتناول الآن ذكر بعض الآيات التي تذكر الجزاء العظيم للمنفقين، والآيات كثيرة، ولعل أقواها تأكيدًا وأوضحها تصويرًا آية سورة البقرة، فقد ضرب الله مثلاً لمضاعفة الثواب للمنفقين في سبيل الله بحبة القمح؛ فالزارع يضع الحبة في الأرض، فتنبت سبع سنابل، وتحمل كل سنبلة مائة حبة، كذلك الحسنة يضاعفها الله سبعمائة ضعف، وقد يضاعفها أكثر من سبعمائة ضعف لمن يشاء من عباده المحسنين، لأن الله واسع الرزق ليس لسعته حدود، ويعلم مدى ما يستحقه المنفق من جزاء، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 261).

إلى جانب هذه الصورة المعبرة أذكر بعض الآيات الأخرى كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: 274)، وقوله تعالى:

﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 272).

ومن الحث على الإنفاق في سبيل الله أن الله اعتبر الإنفاق قرضًا لله – ومعروف أن القرض واجب السداد – وأن هذا القرض سيرده الله مضاعفًا كالآية التي ذكرتها من قبل، وكقوله تعالى: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ (البقرة: 245) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ (الحديد: 18).

وقد حمل هذا بعض أغبياء اليهود على أن يتهموا الله بالفقر، لأنه يطلب منهم قرضًا فهو فقير، وهم الأغنياء، وقد وعدهم الله بعذاب الحريق. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ (آل عمران: 181).

كما سخر بعضهم من مضاعفة الله القرض واعتبره «ربًا» وقالوا: يحرم علينا الربا ويعطيناه، ونسى هؤلاء الحمقى البلاغة التعبيرية، فالمضاعفة هنا ليست للمال المتصدق به بل للأجر الذي يعطيه الله لعباده على أعمالهم الصالحة من زكاة وغيرها.

كما سخر بعض الكفار من دعوة الله للإنفاق على الفقراء زاعمين أن الله كان في قدرته أن يطعم هؤلاء الفقراء فحرمهم فلماذا يريد منهم أن ينفقوا عليهم ويطعموهم؟ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (يس: 47)، ونسي هؤلاء الحمقى أيضًا أن الله تعالى في قدرته إطعام كل البشر وإغناؤهم، ولكن شاءت

حكمته أن يكون فيهم الغني والفقير، وذو السعة والمضيق عليه في الرزق لينتظم المجتمع، فيخدم بعض أفراده بعضًا، ويحتاج بعضهم إلى بعض، فلو أن الناس جميعًا خلقوا أغنياء لما رضي أحد بعمل شيء لأحد غيره لأنه مستغن عنه فيتوقف العمل، وينهار المجتمع، وقد عبر الله عن ذلك في قوله: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف: 32).

شروط الصدقة المقبولة:

هذه الصدقات التي يضاعف الله أجرها، ويجزي عليها خير الجزاء، لابد أن تتوافر فيها شروط لكي تكون مقبولة عند الله، هذه الشروط هي الإيمان بالله وحده وبرسله وكل ما أتوا به، وعدم المن أو الأذى، وعدم الرياء، فالإيمان بالله شرط لقبول أي عمل صالح كما في قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ (إبراهيم: 18)، وقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ﴾ (النور: 39).

وهناك آية أخرى تتحدث عن الإنفاق الذي لا ثواب له... فالله يذكر أن الكفار لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم شيئًا في الآخرة، وأنهم أصحاب النار مخلدون فيها، ثم يبين بعد ذلك نتيجة إنفاقهم الذي لا يقصدون به وجه الله لكفرهم فيصور إنفاقهم في صورة ريح عاصفة شديدة البرودة، أصابت زرع قوم لم يؤدوا حق الله عليهم، فظلموا بذلك أنفسهم، فأهلكت زروعهم وضاعت بذلك نتيجة عملهم، وخاب سعيهم، ووجه الشبه بين الصورتين أنَ المنفقين من الكفار كانوا يريدون بذلك الوجاهة والاستعلاء بين الناس بهذا الإنفاق، ولكن الله أحبط أعمالهم في الآخرة، وعذبهم على كفرهم فكأن ما أنفقوه من مال ضاع عليهم، كما ضاع مال وجهد الزراع

الذين لم يحسنوا عملهم، فجاءت الريح العاصف فأهلكته، وقد استحق هؤلاء وأولئك الخسران بسبب سوء أعمالهم فلم يظلمهم الله، ولكن ظلموا هم أنفسهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: 116، 117).

وأما المن فالمراد به تعبير المحسن من أحسن إليه بهذه الصدقة التي أعطاه إياه، فيذكره دائمًا بفضله عليه، وعطائه له، والأذى هو أن يعطي المحتاج صدقة ثم يتبع ذلك بإيذائه بالقول أو الفعل. هذه الصدقة لن يقبلها الله ويفضل عليها الكلمة الطيبة، والاعتذار الرقيق للمحتاج عن عدم قدرته على إعطائه ما يريد، قال تعالى: ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 263) وذلك لأن الإسلام يريد للإنسان أن تحفظ كرامته، ويعيش مرفوع الرأس ومهما كانت حاجته، لا يشعر أنه يأخذ حق غيره، بل يأخذ حق الله الذي منحه إياه من مال الغني. كما يريد للغني أن يُطامن من كبريائه، فلا يستعلي على الفقير بسبب ما قدم له من صدقة.

ولنتأمل ختام الآية بذكر صفتين من صفات الله هما: الغني والحلم، ليعرف الغني أن الله قادر على أن يرزق الفقير من طريق غير طريقه، ثم يمد للغني أسباب الرجاء والتوبة؛ فالله لن يعاجله بالعقوبة، فيستطيع أن يعدل من سلوكه نحو الفقراء.

وأما الرياء فهو أن يتصدق الغني، وهو يريد بصدقته الثناء من الناس وحسن الأحدوثة، وهذا يبطل صدقته لأن أي عمل لا يقصد به وجه الله مرفوض من الله، ولا

يجازي عليه، لأنه يدل على عدم إيمان الله واليوم الآخر؛ يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: 264).

فهذه الآية قررت:

أولاً: **أن الصدقة تبطل بالمن والأذى، ومعنى بطلانها أن معطيها لا ينال عليها ثوابًا.**

وثانيًا: **أن الذي يعطي الصدقة ويتبعها بالمن والأذى يتساوى مع الذي ينفق ماله من أجل مراءاة الناس، وطلب ثنائهم عليه وهو لا يؤمن بالله واليوم الآخر.**

وقد صور القرآن هذه الأصناف الثلاثة في ذهاب أجرهم، وضياع ثوابهم بحجر عليه تراب فنزل عليه مطر شديد أذهب التراب من فوق الحجر فعاد أملس جامدًا، وذهب التراب كأن لم يكن، ولنتأمل اختيار القرآن لألفاظ هذه الصورة فالمشبه به حجر وكأن الله أراد أن يوحي باختيار لفظ الحجر بشدة قساوة قلوب هؤلاء المنفقين لغير وجه الله، واللفظ المرموز به للصدقة «تراب» ليدل على احتقار الله سبحانه لما ينفقه هؤلاء.

ثم يذكر الله صورة مقابلة لهذه الصورة الكريهة، وهي صورة المنفقين الذين ينفقون أموالهم طلبًا لإرضاء الله وحده، وتحقيقًا للثواب الذي يرجونه من الله على عكس الأصناف الثلاثة الذين لا يرجون ثواب الله لعدم إيمانهم به أساسًا فهم منافقون.

والصورة التي صور الله بها هؤلاء المنفقين هي صورة جنة أي حديقة في مكان مرتفع لتكون أجود للثمر، وأبهج للنظر، هذه الجنة عندما ينزل عليها المطر الغزير تخرج ثمرها مضاعفًا، بل هي لا تحتاج في إثمارها وإزهارها إلى المطر الغزير وإنما يكفيها رذاذ من المطر؛ قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: 265).

ثم يرسم القرآن صورة أخرى لمن يُتبع صدقته بالمن والأذى، أو ينفقها رياء الناس وهي صورة تثير الندم والحسرة في القلوب، فهي صورة جنة أي حديقة حافلة بالنخيل والأعناب والأنهار تحيط بها وأشجارها كثيرة الثمر، وثمرها متنوع ففيها من كل الثمر وصاحب هذه الحديقة رجل مسن وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيبًا، وليس في قدرته أن يعمل عملاً يرتزق منه فالحديقة مصدر رزقه الوحيد، وله أولاد ضعفاء لا يقدرون على الكسب، فحاجة هذا الرجل إلى هذه الحديقة شديدة، ولكن أصابت هذه الحديقة ريح شديدة، ممتلئة بالنار فأحرقتها عن آخرها.

كيف تكون حسرة هذا الرجل وندمه؟ ويسأل الله هل يحب أحد من الناس أن يكون في ظروف هذا الرجل؟ والجواب بالطبع يكون بالنفي من جميع البشر، ولكنهم – مع ذلك – يعرضون أنفسهم لهذه الظروف عندما يتبعون صدقاتهم بالمن والأذى أو ينفقون رئاء الناس، فثواب الصدقة الذي يكونون في أشد الحاجة إليه يوم القيامة قد محقه الله، وليس في قدرتهم أن يعودوا إلى الدنيا ليتصدقوا لوجه الله، فليس إلى مرد من سبيل.

قال تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: 266).

وهناك شرطان آخران لكي يضاعف الله ثواب الصدقة وهي أن تكون الصدقة من مال حلال، وطعام طيب، فالصدقة من مال حرام - مسروق أو مغتصب مثلاً - لا ثواب لها أصلاً، كذلك الصدقة من أشياء رديئة لا يقبلها المتصدق إذا أراد شراءها إلا إذا تغاضى عما فيها من عيوب لحاجته إليها، أو ندرتها في السوق فهذه الصدقة إن كان واجبة عليه كالزكاة لا تجوز، وإن كانت صدقة تطوع فثوابها ضئيل أو معدوم وقد دعا الله المؤمنين إلى مراعاة ذلك في إنفاقهم فليكن إنفاقهم من أطيب ما يكسبون ومن أجود ما تخرج لهم الأرض، وألا يستمعوا إلى وسوسة الشيطان الذي يخوفهم الفقر لو أنفقوا، ويأمرهم بعصيان، والله يعد المتصدقين بغفران ذنوبهم وزيادة أموالهم، فالله واسع الغنى مستحق للحمد.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 267، 268).

والشرط الآخر أن ينفق الإنسان مما يحبه من مال أو طعام أو ثياب أو غير ذلك، ففي هذا الإنفاق ما يشعر بمدى حرص الإنسان على إرضاء الله، ومقاومته شح نفسه الغريزي الذي يمنعه من الإنفاق عمومًا، ومما يحبه خصوصًا وقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: 9).

والآية الوارد فيها هذا الشرط هي قوله تعالى: ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا

تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران: 92).

وقد كان لهذه الآية أثر كبير في صحابة رسول الله (ﷺ) فأسرع كثير منهم إلى أحب ماله إليه، فأنفقه في سبيل الله كما فعل أبو طلحة عندما نزلت هذه الآية، فذهب إلى رسول الله (ﷺ) وقال له: إن أحب مالي إليَّ هي بئر حاء وأشهدك أني جعلتها لله - وكانت بئر حاء مستقبلة المسجد، وكان رسول الله (ﷺ) يدخلها، ويشرب من ماء فيها طيب - وكما فعل زيد بن حارثة، فقد عمد إلى فرس يقال لها: «سبل» وقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إليّ من فرسي هذه، فجاء بها النبي (ﷺ) فقال له رسول الله (ﷺ): «قد قبلها منك».

أنواع الزكاة:

والزكاة منها ما هو فرض حتمي كزكاة المال والزروع، ومنها ما هو فرض على الاختيار حيث توجد بدائل أخرى كزكاة الكفارات، ومنها ما هو تطوع.

الزكاة المفروضة:

زكاة المال: وتجب على كل مسلم امتلك قدرًا من الذهب يساوي عشرين مثقالاً [والمثقال يعادل حوالي أربعة جرامات وربع تقريبًا] أو مائتي درهم من الفضة، أو ما يساويها من العملات ويسمى هذا نصابًا، بشرط أن يحول على امتلاكه هذا المبلغ حول - أي عام من تاريخ امتلاكه - وألا يكون في حاجة إليه أو مدينًا به. والقرآن الكريم لم يذكر هذا النصاب، ولا شرط مرور حول عليه، وإنما جاء في أحاديث الرسول (ﷺ) وإنما ذكر القرآن مصارف الزكاة - أي الأبواب التي تنفق فيها وهي ثمانية: الفقراء، والمساكين، والعاملون عليها، والمؤلفة قلوبهم - وهم بعض رؤساء المشركين يعطون مالاً ليسلموا فيسلم معهم أتباعهم - والعبيد المكاتبون - أي الذين

اتفق معهم سادتهم على أن يدفعوا إليهم قدرًا من المال فيعتقوهم - والغارمون - وهم المدينون الذين أثقل الدين كواهلهم، والمجاهدون في سبيل الله والإنفاق على العتاد الحربي، ثم ابن السبيل وهو المسافر الذي نفد ماله ولا يجد وسيلة للرجوع إلى بلده، وقد ذكر الله هذه المصارف ليرد على تسخط بعض ضعاف الإيمان والمنافقين على الرسول (ﷺ) لأنه إذا أعطى بعض الناس وتركهم أو أعطاهم أقل أخذوا يعيبونه، وإذا أعطاهم من الزكاة ما يكفيهم رضوا عنه، ثم بيَّن الله واجب المؤمن الحق وهو أن يرضى بما أعطاه الرسول (ﷺ)، وأن يقول في كل حال: يكفيني فضل الله علي وإنعامه علي بالإيمان، وأن الرسول سيؤتينا في مرات قادمة الكثير فإننا لا نرغب إلا في فضل الله، ثم ذكر بعد ذلك مصارف الزكاة التي ذكرتها.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: 58 - 60).

* * *

ملاحظات:

1- اختلف المفسرون في الفرق بين الفقير والمسكين فقال بعضهم: الفقير من لديه شيء قليل لا يكفي قوته، والمسكين ليس لديه أي شيء، وقال بعضهم العكس.

2- المراد بالعاملين عليها: العمال الذين يرسلون لتحصيل الزكاة من الأغنياء،

وكانت معظم الأموال في هذا الوقت هي الأنعام (أي المواشي من إبل وبقر وغنم) فكان العامل يذهب إلى مضارب القبائل ويحصى ما لديهم من هذه المواشي والقدر المستحق عليهم ثم يأخذه ويذهب به إلى بيت المال، وهذا المصرف قد انتهى في عصرنا لأن الحكام لا يحصلون الزكاة بين الناس، بل يتركونهم وضمائرهم، بينما كان الحكام في العصور الأولى حريصين على تحصيل الزكاة، بل يحاربون من يتعمد منعها معتبرًا أنها ليست فريضة كما فعل أبو بكر في حرب المرتدين.

3- أبطل عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيبًا من الزكاة، معتبرًا أن الرسول (ﷺ) كان يعطيهم لأن الإسلام كان ضعيفًا يحتاج إلى قوة هؤلاء، أما وقد أعز الله الإسلام، فلا حاجة إليه بهم، فإن أرادوا أن يسلموا إيمانًا واقتناعًا فمرحبًا بهم، وإلا فالإسلام في غنى عنهم، ولا يعتبر عمل عمر هذا إلغاء لنص في كتاب الله، وإنما هو اجتهاد في فهم النص، ولا مانع من أن نعيد العمل بهذا النص، على أن ينفق في الدعاية للإسلام، والتبشير به بين الشعوب الوثنية، ومحاولة ضمهم إلى الإسلام.

وكذلك ألغى الإسلام نصيب العبيد المكاتبين (وفي الرقاب) لإلغاء الرق في العالم.

4- «وفي سبيل الله» يمكن أن يشمل كل الإنفاق في سبيل خير الإسلام فيدخل فيه إنشاء مستشفيات لعلاج الفقراء مجانًا، أو مدارس لتعليمهم، أو بناء المساجد وغير ذلك من المؤسسات النافعة للمسلمين.

5- ليس بلازم أن يعطي المزكي كل هؤلاء الأصناف، بل عليه أن يعطي فئات منهم لا تخرج عنهم.

6- عبر الله في الآية عن الزكاة المفروضة بالصدقات فدل هذا على تساوي لفظي الزكاة والصدقة في التعبير القرآني، فيمكن أن يدل أي منهما على الفرض أو التطوع.

* * *

المقدار الواجب إخراجه من المال:

لم ينص القرآن على هذا المقدار، ولكن عُلم من أحاديث الرسول (ﷺ) أن المقدار الواجب إخراجه من الذهب والفضة جزء من أربعين جزءًا مما يملكه المزكي أو كما نعبر عنه الآن 2.5٪.

وإلى جانب زكاة الذهب والفضة هناك زكاة الأنعام، ولم يذكرها القرآن أيضًا، ولها نصاب خاص مناسب لكل نوع، فللغنم نصاب، وللإبل نصاب وهكذا، كذلك يختلف المقدار الواجب إخراجه باختلاف كل نوع.

زكاة الأنعام:

ولم يذكرها القرآن الكريم، ولكنا نوجز الكلام فيها إتمامًا للفائدة.

والمراد بالأنعام: الإبل، والبقر، والغنم، ويشترط لإخراجها أن تكون سائمة أي ترعى مجانًا من أعشاب الأرض، ولا تكلف صاحبها شيئًا، أما إذا كان صاحبها يعلفها على حسابه معظم أيام السنة فلا زكاة فيها إلا إذا كان يسمنها للتجارة، فتعامل معاملة التجارة كما سأذكر.

والشرط الثاني: أن يحول عليها الحول.

والشرط الثالث: أن تبلغ النصاب، ويختلف النصاب والمقدار الواجب إخراجه منه من نوع لآخر.

نصاب الإبل والمقدار الواجب إخراجه:

ليس في أقل من خمسة من الإبل زكاة.. فإذا بلغت خمسًا فزكاتها شاة، وكذلك في كل خمس بعد ذلك حتى تبلغ خمسًا وعشرين فإذا بلغت خمسًا وعشرين ففيها ناقة دخلت في سنتها الثانية أو جمل دخل في سنته الثالثة، ولا يزيد على هذا حتى تبلغ الإبل ستًّا وأربعين ففيها ناقة دخلت في سنتها الرابعة.. فإذا بلغت إحدى وستين ففيها ناقة دخلت في سنتها الخامسة، وإذا بلغت ستًّا وسبعين ففيها ناقتان في السنة الثالثة حتى تبلغ إحدى وتسعين ففيها ناقتان في سنتهما الرابعة إلى مائة وعشرين فإذا زادت ففي كل أربعين ناقة في سنتها الثالثة أو في كل خمسين ناقة في سنتها الرابعة.

زكاة البقر:

لا زكاة فيها حتى تبلغ ثلاثين سائمة – أي لا تكلف صاحبها شيئًا من العلف – فإذا بلغت ثلاثين ففيها عجل سِنه سَنة، فإذا بلغت أربعين ففيها عجلة سنها سنتان، فإذا بلغت ستين ففيها عجلان سن كل منهما سنة، فإذا بلغت سبعين ففيها عجلة سنها سنتان وعجل سنه سنة، وإذا بلغت ثمانين ففيها عجلتان سنهما سنتان، وإذا بلغت تسعين ففيها ثلاثة عجول سن كل منها سنة، وهكذا يكون الحساب دائرًا بين مجموع الأربعين والثلاثين يعطي عن الأربعين عجلة سنها سنتان، وعن الثلاثين عجل سنه سنة واحدة وما بين هذين العددين لا شيء فيها، ومثل البقر الجواميس.

زكاة الغنم:

لا شيء فيها حتى تبلغ أربعين.. فإذا بلغت أربعين ففيها شاة حتى مائة وعشرين، فإذا بلغت مائة وإحدى وعشرين ففيها شاتان حتى تبلغ مائتين وواحدة ففيها ثلاث شياه، ثم في كل مائة بعد ذلك شاة، ومثل الغنم الماعز.

زكاة الزروع والثمار:

وقد ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام: 141).

فالله في هذه الآية يمتن على عباده بما أنعم عليهم به من حدائق مثمرة، حافلة بالأشجار والزروع منها ما هو مرفوع على أعواد، ومنها ما هو مفروش على الأرض والنخل والزروع المتنوعة التي تختلف في الطعام والشكل، والزيتون والرمان الذي يتشابه في اللون والشكل، ولكنه لا يتشابه في الطعم، ثم يدعوهم إلى الاستمتاع بأكل هذه الثمار، وأن يعطوا الفقير حقه منها، وحدد هذا الوقت وهو يوم الحصار، ثم نهاهم عن الإسراف في الأكل منه، أو في إعطاء الفقير للدرجة التي تحرم أصحابه من ثمرة جهدهم، فالله لا يحب الإسراف في كل شيء.

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ (الإسراء: 26) فهي تحتمل معنى أن يكون النهي عن التبذير في إعطاء هؤلاء المحتاجين حتى لا يتبقى له شيء، ويؤيد هذا ما روي أنه سعد ابن أبي وقاص مرض فأراد أن يتصدق بماله كلها فنهاه رسول الله (ﷺ) عن ذلك، فأراد أن يتصدق بالثلثين ثم بالنصف فنهاه الرسول (ﷺ) أيضًا، فلما قال: بالثلث، فقال الرسول (ﷺ): «الثلث والثلث كثير، لأن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس».

وللفقهاء تفصيلات في نصاب الزروع والثمار، وفي المقدار الواجب إخراجه

منها، والمقدار الواجب إخراجه العُشر الذي كانت تروى بغير جهد، ونصف العشر إذا أرويت بالآلات، وتختلف هذه الزكاة عن زكاة المال في أنها لا يشترط فيها حولان الحول بل يجب إخراجها عند حصاد الثمرة.

زكاة التجارة:

ويدخل أيضًا في الزكاة المفروضة زكاة التجارة، ويشترط فيها النصاب أيضًا، وهو نصاب الذهب والفضة فتُقَّوم بهما ثم يخرج منهما 2.5٪ كزكاة المال بعد حولان الحول عليها، ولم يرد لها ذكر في القرآن الكريم.

زكاة الكفارات:

والكفارة عقوبة فرضها الله على المخطئين من عباده في أمور معينة لتطهيرهم من خطاياهم، والعفو عنها، وهي تدور حول ثلاثة أمور يختار المخطئ منها ما يقدر عليه، وهذه الأمور الثلاثة هي: تحرير عبد من الرق، أو إطعام عدد من المساكين، أو صوم أيام محددة.

والذي يعنينا هنا هو الإطعام لأنه نوع من الزكاة، وإذن زكاة الكفارات مفروضة لكن لا على سبيل الإلزام بل على سبيل الاختيار، فإذا اختار المخطئ الإطعام فقد صار فرضًا عليه، ومن أمثلة الأخطاء التي تستوجب التكفير عنها بعض محظورات الحج، والقتل الخطأ، والحنث في اليمين وغير ذلك، وسأذكر هذه الكفارة في أبوابها المناسبة.

صدقة التطوع:

وهذه هي مجالات التنافس بين عباد الله المتقين، فهي صدقة يخرجها المسلم دون أن تكون مفروضة عليه، بل يبتغي بها وجه الله، وهي الصدقة التي يضاعفها الله

أضعافًا كثيرة كما مر بنا في الآيات السابقة، وكفى تكريمًا للصدقة أن الله يأخذها بنفسه فقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: 104).

وقد ورد في الحديث الشريف: «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل [أُحد] وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾.

وفي صحيح مسلم: «لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل» وفي حديث آخر: «إن الصدقة لتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل فيربيها كما يربي أحدكم فلُوَّه أو فصيله (أي ولد الفرس وولد الناقة) والله يضاعف لمن يشاء».

وهذه التعبيرات كلها على سبيل المجاز فهي كناية عن قبول الله لها، وجزائه عليها.

إخفاء الصدقة وإعلانها:

سواء في ثواب الله أن يعطي المتصدق الصدقة سرًّا، أو يعطيها علانية فقد وردت الآيات بالإثابة على الأمرين فقد قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: 274).

وقال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة: 271).

فقد مدح الله إعلان الصدقة، وبين أن إخفاءها خير للمتصدق. والمعول عليه في الأمرين هو إخلاص النية لله، وعدم الإساءة إلى الفقير، فإن كان في إعلان الصدقة جرح لكرامة الفقير فإخفاؤها خير، وإن كان في إعلانها تحريض للأغنياء على التصدق فإعلانها خير، وفي كلتا الحالتين فقد جعل الله من ثواب الصدقة تكفير سيئات المتصدق، وقد ختم الله الآية بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ ليؤكد أن الله يجزي على ما في الضمير، ويعلم القصد من الإسرار أو الإعلان.

الصيام

وهو الركن الرابع من أركان الإسلام الخمسة، ويختلف عن الصلاة والزكاة في أنه لم يرد كثيرًا في القرآن الكريم، بل ورد في سورة واحدة هي البقرة، في خمس آيات منها فقط، ثم لم يذكر بعد ذلك إلا في آيات قليلة عند الحديث عن كفارة بعض الذنوب كما سأذكر. كذلك لم يرد ذكر للصائمين إلا في آية واحدة من سورة الأحزاب تُبين الأجر العظيم الذي أعده الله للمسلمين والمتصفين بصفات الصلاح.. منهم الصائمون والصائمات وذلك في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: 35).

والصوم في اللغة: الإمساك عن فعل شيء، فيقال: صام عن الكلام أي أمسك عنه كما ورد قوله تعالى عن مريم: ﴿ فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ (مريم: 26).

وإذا كان القرآن الكريم لم يتحدث كثيرًا عن الصوم، فقد وردت أحاديث كثيرة في فضله يكفي منها هذا الحديث القدسي الذي أضاف الله فيه الصوم إلى نفسه تكريمًا

وتعظيمًا، يقول الله تبارك وتعالى: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»، ويعلق القرطبي في تفسيره على هذا الحديث بقوله: (وإنما خص الصوم بأنه له، وإن كانت العبادات كلها له لأمرين باين بهما الصوم سائر العبادات).

أحدهما : أن الصوم يمنع من ملاذ النفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات.

الثاني : أن الصوم سر بين العبد وربه لا يظهر إلا له، فلذلك صار مختصًّا به وما سواه من العبادات ظاهر، ربما فعله تصنعًا ورياء، فلهذا صار أخص بالصوم من غيره. (تفسير القرطبي على تفسيرات آيات الصوم).

الصوم المفروض:

من الصوم ما هو فرض حتمي على كل مسلم، وهو صوم شهر رمضان، وفرض اختياري لأن هناك بدائل معه وهو صوم الكفارات، وصوم التطوع.

وقد ورد في صوم الفرض خمس آيات في سورة البقرة - كما ذكرت قبل - سأتناولها بالشرح:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (البقرة: 183، 184).

بدأت الآيات بتوجيه الخطاب إلى الذين آمنوا كما يفعل الله في التشريعات الخاصة بالمسلمين، وذلك لاستثارة حميتهم الدينية، فما داموا قد آمنوا بالله ورسوله فعليهم أن يطيعوه فيما فرضه عليهم، ثم ذكرت الآية الأولى أن الصوم فريضة مكتوبة على

المسلمين من عهد آدم عليه السلام إلى عهد محمد (ﷺ)، فليس الصوم عبادة خاصة بالمسلمين في عصر الرسول (ﷺ) بل هي مكتوبة على كل من سبقهم من الأمم.

ونسأل: هل كان صوم الأمم السابقة مثل صيامنا تمامًا من حيث مقدار الصيام ووقته، وكيفيته؟

يقول بعض العلماء بذلك وإن كان أهل الكتاب غيروا وبدلوا حتى اختلفوا عنا، ويرى آخرون أن التماثل بين الأمم السابقة وبيننا إنما هو في أصل الصيام ولكن الوقت والمقدار والطريقة تختلف، وأرجح هذا الرأي كما في الصلاة، فهي مفروضة على الأمم السابقة، وهي ليست كصلاتنا تمامًا.

ثم يبين الله الغاية من فرض الصوم وهي تقوى الله.. فالله لا يفرض الفرائض لتؤدى بطريقة آلية ثم لا يكون لها ثمرة، ولكن لتقرب العبد من ربه، وتملأ قلبه خوفًا من عقابه إذا انحرف عن الجادة، فيحرص مؤدي هذه الفرائض على اجتناب ما نهى الله عنه، وفعل ما أمر به.. فإذا لم تأت العبادة بالثمرة المرجوة منها فلا قيمة لها، ولا ينال العابد إلا التعب والمشقة، ولذلك قال (ﷺ): «من لم يدع قول الزور والعمل به فلا حاجة لله بصلاته وصيامه» (رواه البخاري عن أبي هريرة).

ومثل هذا قوله تعالى عن الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ (العنكبوت: 45).

أما الآية الثانية فذكرت مقدار الصيام أيامًا معدودات، ولكن لم تحدد أيامها، بل ذكرت ما يشجع المسلم على صيامها، فهي ليست العام كله، ولا نصفه أو ثلثه، بل هي أيام معدودة، وذلك للتهوين على المسلم، وسيفسرها الله بعد ذلك بأنها شهر

رمضان على أن بعض المفسرين ذهب إلى أن هذه الآية نزلت قبل فرض صوم رمضان، وكانت ثلاثة أيام في كل شهر ثم نسخت بالآية التالية لها.

ثم ذكرت تيسيرًا آخر وهو أن المريض والمسافر ليس عليهما صيام هذه الأيام بل يصومان مثلها في أيام أخرى يكون المسافر قد أتم سفره، والمريض استرد صحته.

وأقف وقفة قصيرة عند المرض والسفر. لقد أباح الله فيهما الفطر لما يتكلفه المرء في السفر من مشقة، ويعانيه المريض من ضعف، فهل أي مرض وأي سفر يبيحان الفطر؟

ظاهر الآية يدل على ذلك، فالمسلم إذا أصيب بوعكة - أي وعكة - جاز له الفطر حتى لو كانت وجعًا في إصبعه كما روي ذلك عن ابن سيرين وهو من كبار علماء التابعين، فقد دخل عليه أحد أصدقائه فوجده يفطر في رمضان فلما سأله عن سبب ذلك أراه إصبعه التي أصيبت بمرض وعلق على ذلك بقوله: متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر قياسًا على المسافر ففطره لعلة سفره، وإن لم تدع إلى الفطرة ضرورة.

وقال جمهور من العلماء: إذا كان به مرض يؤلمه ويؤذيه، أو يخاف تماديه أو يخاف تزيُّدُه وصح له الفطر، وقالت فرقة: لا يفطر بالمرض إلا من دعته ضرورة المرض نفسه إلى الفطر ومن احتمل الضرورة معه لم يفطر.

أما السفر فقد اختلف الفقهاء فيه أيضًا، فاشترط كثير منهم أن يكون سفر للطاعات كالحج فيكون الفطر أولى، وأما المباحات كالتجارة والسياحة فالصوم والإفطار متساويان في الجواز، وأما سفر المعاصي كأن يسافر الإنسان ليرتكب محرمًا

من المحرمات فالإفطار ممنوع [وليس هذا بمستغرب فبعض الناس يحرصون على الصوم ولا يكفون عن ارتكاب الذنوب، وهذا طبعًا خطأ بل خطيئة فالدين متكامل] ثم اختلفوا في مقدار المسافة التي تبيح الفطر فقيل يوم وليلة، وقيل: ثلاثة أيام بلياليها - وذلك بسير الإبل ومشي الأقدام - وقدرت في عصرنا بأربعة وثمانين كيلو مترًا.

وتشديد المشددين في الانتفاع بهذه الرخصة لكيلا يستغلها الناس فيفطروا لأقل مرض وأقل سفر، ولكن للمرحوم سيد قطب (في ظلال القرآن عند تفسيره هذه الآية) رأي سديد وتبرير وجيه فهو - مع ابن سيرين - أن كل ما يطلق عليه مرض أو سفر فهو مبيح للفطر، ويبرر ذلك معلقًا على أن تشدد المتشددين خوفًا من أن يترخص الناس في الفطر، لا يبرر التقييد فيما أطلقه النص، فالدين لا يقود الناس بالسلاسل، وإنما يقودهم بالتقوى وغاية هذه العبادة خاصة هي التقوى، والذي يفلت من أداء الفريضة تحت ستار الرخصة لا خير فيه منذ البدء، لأن الغاية الأولى من أداء الفريضة لا تتحقق. وهذا الدين دين الله لا دين الناس، والله أعلم بتكامل هذا الدين.. بين مواضع الترخص ومواضع التشدد، وقد يكون وراء الرخصة في موضع من المصلحة ما لا يتحقق بدونها.. ومن ثَمَّ أمر رسول الله (ﷺ) أن يأخذ المسلم برخص الله التي رخصها لهم».

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين فطر الرسول (ﷺ) في رمضان بسبب السفر منها ما رواه جابر بن عبد الله، قال: «خرج رسول الله (ﷺ) عام الفتح إلى مكة في رمضان فصام حتى بلغ (كراع الغميم) فصام الناس ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس، ثم شرب. فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام. فقال: أولئك العصاة.. أولئك العصاة».

ومنها أن رسول الله (ﷺ) كان في سفر، فرأى رجلاً قد اجتمع عليه الناس، وقد ظلل عليه، فقال: ما له؟ فقالوا: رجل صائم، فقال (ﷺ): «ليس من البر الصوم في السفر».

وكما ذكرت الآيات يقضي المريض والمسافر الأيام التي أفطرها، وثمة تيسير ثالث وهو أن الذي يجد مشقة بالغة في الصوم يمكنه أن يفطر ويفدي، والفدية طعام مسكين عن كل يوم يفطره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فمعنى «يطيقونه» يبلغ الصوم بهم جهد الطاقة، وقد حبب الله المفطرين في الصدقة فقال بعد أن ذكر أن الفدية طعام مسكين: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ﴾ (البقرة: 184) أي أن الذي ينفق أكثر مما هو مطلوب لأن يطعم أكثر من مسكين، أن يقدم للمسكين الواحد طعامًا طيبًا كثيرًا فذلك خير له. والصوم في هذه الحالة خير للمسلم.

يقول المفسرون: إن هذا الحكم قد نسخ في حق الصائمين، فلم يعد جائزًا لهم الإفطار ما دام الصيام في قدرتهم واستثنى من ذلك الشيخ الهرم، والمريض الذي لا يرجي برؤه.

ثم يذكر الله بعد ذلك في الآيات التالية أن الأيام المعدودات هي: شهر رمضان، وقد كرم الله هذا الشهر بالصوم لنزول القرآن فيه الذي جاء لهداية الناس، وليبين لهم طريق الحق والخير، ويفرق به بين الحق والباطل، ويطلب من كل المسلمين عند رؤية هلال رمضان أن يصوموا، إلا المريض والمسافر فإنهما يفطران ثم يقضيان ما أفطرا في أيام أخرى بعد انقضاء رمضان، وهذا من تيسير الله على الناس فهو يريد بهم اليسر، ولا يريد بهم العسر، ثم يأمر الله المسلمين أن يكملوا صيام الشهر سواء أكان تسعة

وعشرين يومًا أم ثلاثين، ثم عليهم أن يكبروا الله بعدانتهاء صوم رمضان على أن هداهم إلى هذا الصيام، ووفقهم على إتمامه، فذلك هو شكر الله الواجب له عليهم.

والتكبيريبدأ بعد غروب شمس اليوم الأخير حتى صلاة العيد، ويكون بلفظ الله أكبر ثلاثًا، وقد يضيف إليه المكبر ألفاظًا أخرى مثل: الله أكبر كبيرًا، الله أكبر ولله الحمد.. إلى غير ذلك من الصيغ المعروفة.

قال تعالى: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (البقرة: 185).

ونلاحظ أن هذه الآية قد كررت إباحة الفطر للمريض والمسافر لتأكيد الحكم على رأي من قال: إن الأيام المعدودات هي شهر رمضان، وعلى رأي من قال: إن الأيام المعدودات كانت قبل فرض صوم رمضان فهي حكم جديد، ولم تذكر الآية أن من يطيق الصوم يفطر ويفدي، فدل هذا على أن هذا الحكم قد نسخ.

ثم تأتي آية بعد ذلك تتحدث عن قرب الله من عباده، وأنه يجيب دعاءهم إذا دعوه، فعليهم أن يستجيبوا لما يأمرهم به، ويؤمنوا به وبقدرته على كل شيء فهم بذلك سيبلغون الرشاد والهداية.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ﴾ (البقرة: 186).

قال بعض المفسرين:

إن سبب نزول هذه الآية أن الصحابة سألوا رسول الله (ﷺ) أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه، فنزلت هذه الآية.

وقد يسأل ما سبب إقحام هذه الآية بين أحكام الصوم؟

يجيب على ذلك المرحوم سيد قطب «في ظلال القرآن عند تفسير هذه الآية»: «وقبل أن يمضي السباق في بيان أحكام تفصيلية عن مواعيد الصوم، وحدود المتاع فيه، وحدود الإمساك نجد لفتة عجيبة إلى أعماق النفس وخفايا السريرة، نجد العوض الكامل الحبيب المرغوب عن مشقة الصوم، والجزاء المعجل على الاستجابة له، نجد ذلك العوض في القرب من الله وفي استجابته لدعائه تصوره ألفاظ شفافة رنانة تكاد تنير.

وفي كل لفظ من التعبير تلك النداوة المحببة.. إضافة العباد إلى الله، والرد المباشر عليهم منه لم يقل: قل لهم إني قريب. إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال.. قريب ولم يقل: أسمع الدعاء، إنما عجل بإجابة الدعاء: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ﴾.

والصائم أقرب الدعاة استجابة كما روي عن ابن عمر أن رسول الله (ﷺ) قال: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة».. كما قال رسول الله (ﷺ): «ثلاثة لا تُرد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها أبواب السماء ويقول: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»، ومن ثَمَّ جاء ذكر الدعاء في ثنايا الحديث عن الصيام».

وأما الآية الأخيرة من آيات الصيام فتبين حل مباشرة النساء في ليالي رمضان، فقد كان الصحابةيرون أنه لا يحل لهم مباشرة النساء في ليل رمضان سواء بالمداعبة، ومقدمات الجماع، أو بالجماع نفسه بعد أن ينام وتنام زوجته ثم يستيقظا قبل الفجر، وكذلك يرون أن الصائم لا يحل له أن يأكل شيئًا إذا نام في ليل رمضان، ثم استيقظ قبل طلوع الفجر ولو بساعات كثيرة، فكان ذلك يشق عليهم.

فقدروى أن أحد الصحابة كان يعمل في النخيل بالنهار وكان صائمًا فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال لها: أعندك طعام. قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل، فغلبته عيناه، فجاءته امرأته فلما رأته نائمًا قالت: خيبة لك، فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبي (ﷺ) فأنزل الله آية يحل فيها مداعبة النساء ومجامعتهن طوال ليل رمضان حتى طلوع الفجر كما أحل لهم الطعام والشراب في أي وقت من الليل، وهذه الآية هي: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ﴾ (البقرة: 187).

ولنتأمل بعض ألفاظ هذه الآية وتعبيراتها.. لقد بدأ الله بذكر حل الرفث إلى النساء لأنه كان الغالب الوقوع فيه، على عكس الأكل والشرب، لأنه من النادر أن يحل المغرب ولا يأكل الصائم.. والرفث معناه الفحش في القول وخصوصًا ما يتصل بالمرأة والجماع، والمراد به هنا مقدمات الجماع من مداعبة وملاعبة والجماع نفسه. وقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ كناية عن المباشرة اللصيقة بين الرجل وزوجته، وكما أن اللباس يستر الإنسان ويحقق له حاجة ماسة من الستر والحماية،

فكذلك المرأة لزوجها والرجل لزوجه كلاهما يشبع حاجة الآخر في ستر وصيانة.

وأما قوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ فهو من الخيانة، وتختانون بمعنى تخولون.. وهي أن يخالف المسلم تعاليم دينه بأن يأتي العمل الذي نهى الله عنه وهو الجماع في ليل رمضان، فقد روى أن عمر رضي الله عنه رجع من عند النبي (ﷺ)، وقد سهر عنده ليلة، فوجد امرأته قد نامت فأرادها، فقالت: قد نمت.. فقال لها: ما نمت. فوقع بها، وصنع كعب بن مالك مثله، فغدا عمر على النبي (ﷺ) فقال: أعتذر إلى الله وإليك، فإن نفسي زينت لي فواقعت أهلي، فهل تجد لي من رخصة؟ فقال له: لم تكن حقيقًا بذلك يا عمر، فلما بلغ بيته أرسل إليه الرسول (ﷺ)، فأنبأه بعذره في آية من القرآن هي هذه الآية، ولفظ «باشروهن» كناية عن الجماع، وسمي مباشرة لتلاصق البشرتين فيه، وأما قوله: ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فمعناه: اطلبوا ما أحله الله لكم من الاستمتاع بالنساء، والاستمتاع بالذرية التي تأتي ثمرة الجماع.

ومعنى ﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ هو انتشار النور في الأفق وعلى قمم الجبال، وليس هو ظهور الخيط الأبيض في السماء، وهو ما يسمى بالفجر الكاذب، وحسب الروايات التي وردت في تحديد وقت الإمساك نستطيع أن نقول: إنه قبل طلوع الشمس بقليل، وإننا نمسك الآن وفق المواعيد المعروفة في قطرنا هذا قبل أوان الإمساك الشرعي ببعض الوقت ربما زيادة في الاحتياط، فقد قال رسول الله (ﷺ): «لا يغرنكم أذان بلال، وهذا البياض حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر»، وفي رواية أخرى: «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير في الأفق» والفجر المستطير [أي المستنير] في الأفق يسبق طلوع الشمس بوقت قليل. (سيد قطب: «في ظلال القرآن» - عند تفسير هذه الآية).

صوم الكفارات:

والكفارة – كما قلت في الزكاة عقوبة تقع على مرتكب ذنبًا وتكون سببًا في تكفير هذا الذنب، وتدور حول تحرير الرقبة، والإطعام، والصوم، ومن هذه الذنوب التي تكفرهاهذه الأشياء: القتل الخطأ، الظهار، الحنث باليمين، بعض محظورات الحج، والصوم ليس أمرًا حتميًّا فيها بل هو أحد البدائل التي قد يضطر إليها المخطئ، فإذا تعين الصوم أصبح فرضًا، وسأتحدث عن صوم الكفارات في مواضعها المناسبة.

صوم التطوع:

لم يرد في القرآن الكريم ذكر لصوم التطوع، ولكن وردت أحاديث كثيرة تحث على الصيام، وتبين فضل بعض الأيام كصوم ست من شوال، وصوم عاشوراء إلى غير ذلك مما لا يدخل في موضوع هذا الكتاب.

الاعتكاف:

وهو قربة من القرب، ونافلة من النوافل، عمل بها رسول الله (ﷺ) – وهو ليس فرضًا – وكان (ﷺ) يعتكف في رمضان.. ومعنى الاعتكاف: أن يدخل المسلم مسجدًا من المساجد فينوي الإقامة فيه يرى بعض العلماء أنها قد تكون لحظة ولا حد لأكثره وقال آخرون: أقله يوم وليلة، ويغلب أن يكون في رمضان وقد يكون في غير رمضان بشرط الصيام عند جمهور العلماء، فإذا نوى الاعتكاف لا يجوز له الخروج من المسجد إلا لضرورة لا يمكن مقاومتها ثم يعود إلى مسجده، فإذا خرج من غير ضرورة بطل اعتكافه، ولا يجوز الاعتكاف إلا في مسجد، ويستحب الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان.

ولم يذكر القرآن شيئًا عن الاعتكاف إلا النهي عن مجامعة النساء في أثناء الاعتكاف؛ فقد قال تعالى تتمة للآية السابقة التي أحل فيها مباشرة النساء ليلاً والأكل والشرب، وأمر بإتمام الصيام إلى الليل: ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

والنهي عن مباشرة النساء في أثناء الاعتكاف المراد به في الليل لأن المباشرة في النهار محظورة على الجميع لأنهم صائمون، ولنتأمل في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ ﴾ فلم يقل فلا تجاوزوها، وإنما نهى عن الاقتراب منها، لأن الاقتراب منها قد يغري بإتيانها، فعلى المسلم أن يبتعد في أثناء الصيام أو الاعتكاف عن كل الأمور التي تزين له فعل المحظور مثل المداعبة والتقبيل.

* * *

الحج

وهو الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام، كما جاء في الحديث، والحج يختلف عن بقية الأركان في أنه يحتاج إلى إنفاق مال كثير لأدائه، ومعاناة مشقة السفر، وشد الرحال، وَجَوْب الفيافي والقفار، ومعاناة الجوع والعطش أحيانًا، لأنه يؤدى في مكان معين هو مكة وما حولها، وهو فريضة لكل المسلمين في شتى بقاع الأرض، لذلك جعله الله مرة واحدة في العمر في أي وقت يناسب المسلم وظروفه المالية والصحية، كما جعله للقادر عليه صحيًّا وماليًّا، وأما غير القادر فلا يجب عليه الحج ولا ينقص ذلك من أجره شيئًا كمسلم أدى بقية الفرائض المكلف بها، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾.

ولما كان الحج هو قصد البيت الحرام ناسب أن أبدأ بذكر الآيات التي جاء فيها ذكر هذا البيت، ويطلق البيت الحرام على الكعبة، وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾.

وسميت الكعبة لأنها مربعة أو بالتعبير الهندسي «مكعبة» على عكس بيوت العرب التي كانت مدورة. وأما قوله تعالى: «قيامًا للناس» أي صلاحًا لهم وأمنًا، فإنها مكان يأمن كل من يلجأ إليه، وقد أمن الله على قريش بأنه جعل لهم حرمًا آمِنًا يأوون إليه عند الخوف، بينما غيرهم من الأمم المحيطة بهم يتخطفون من حولهم: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (العنكبوت: 67) كما

ذكر ذلك في سورة قريش في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

بناء البيت:

ذكر الله بناء البيت، وأن الذي بناه إبراهيم عليه السلام، يعاونه ابنه إسماعيل؛ فقد ذكر الله في سورة البقرة أنه جعل البيت مكانًا للناس يترددون عليه لأداء شعائر الحج، وأمنًا لكل من يقيم حوله، فلا يمكن لأحد أن يلحق به أذى طالما هو في جواره، ثم يأمر الله الحجيج أن يصلوا في المكان الذي وقف فيه إبراهيم وهو يبني الكعبة، ويدعو الله، والذي يعرف بمقام إبراهيم، وذلك تكريمًا لإبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، ثم يذكر الله تكليف إبراهيم وإسماعيل تطهير مكان الكعبة وإعدادها ليطوف حولها الطائفون، ويتعبد فيها العابدون، ويصلي فيها المصلون وهم الراكعون والساجدون. قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: 125).

وأقف قليلاً عند قوله تعالى: «طهرا بيتي» فلم يقل الله لهما ابنيا، فهل معنى هذا أن البيت كان موجودًا قبل إبراهيم ولكنه دُنس بالأوثان والأصنام، وتهدم وامتلأ بالقاذورات فكانت مهمة إبراهيم وإسماعيل تطهيره وبنائه، بهذا قال بعض المفسرون، ولكن قال آخرون: إن المراد بالتطهير إقامته على الطهارة، فالمعنى ابنياه وأسساه على طهارة ونية طهارة.

ثم يذكر الله لنا أن إبراهيم وإسماعيل قاما بتنفيذ ما طلب إليهما، فأخذا يرفعان

أساس البيت وهما يتضرعان إلى الله أن يتقبل منهما عملهما فهو سميع الدعاء، عليم بضمائرهما، وأن يجعلهما مسلمين لله وجهيهما وقلبيهما، فلا يخصان غيره بالعبادة، وكذلك يجعل ذريتهما مسلمين له، وأن يعلمهما مناسك الحج وشعائره، وأن يتوب عليهما فهو التواب يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 127، 128).

وفي سورة آل عمران يذكر الله سبحانه أن أول بناء وضع لعبادة الله في الأرض هو البناء الذي بمكة، كذلك وصفه الله بالعتيق لقدمه وكرامته كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، وهو بناء مبارك، يهتدي به جميع من قصده لما يرى فيه من دلائل واضحة على أن الله أمر ببنائه نبيه إبراهيم، وأنه خصه بالكرامة ففيه مقام إبراهيم الذي كان يقوم فيه للصلاة، ولدعاء الله – وقد سبق أن أمر الله بالصلاة فيه تكريمًا لنبيه إبراهيم – ومن تكريم الله له أن كل من يدخله يكون آمنًا من كل مطارد له، فلا يجوز لأحد من الناس أن يروع فيه أحدًا فهو ملاذ للخائفين. ثم يبين الله أنه قد فرض الحج على كل قادر عليه بدنيًّا وماليًّا – كما شرحت قبل: قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (آل عمران: 96، 97).

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس» فقال بعضهم إنه أول بيت بني في الأرض على الإطلاق، وأن الذين بنوه أولاهم الملائكة وقبل بناء آدم عليه

السلام بأمر الله وتوجيهه ليطوف حوله هو وذريته، وقال آخرون: إن المراد هو أول بيت وضع للعبادة، فقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي ذر قال: سألت رسول الله (ﷺ) عن أول مسجد وضع في الأرض. قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال: أربعون عامًا، ثم الأرض لك مسجدًا فحيثما أدركتك الصلاة فصلِّ، «وبكَّة هي مكة»، وقيل «بكة» المسجد، ومكة الحرم كله تدخل فيه البيوت. وبكَّة مشتقة من البكّ وهو الازدحام، سميت بذلك لازدحام الناس في موضع طوافهم.

وفي سورة الحج يذكر الله سبحانه أنه ألهم إبراهيم وأرشده إلى المكان الذي يبنى فيه البيت، وأمره أن يجعل البيت مخصصًا لعبادة الله وحده، وألا يشرك غيره معه في العبادة – وهذا أمر لكل من آمن بالله بعد إبراهيم – وأن يطهره من الأوثان والأصنام والقاذورات دائمًا، فلا يُمكن – هو ومن تبعه من بعده – أحدًا من أن يدنسه، وذلك ليطوف فيه الطائفون، ويصلي فيه المصلون لله (لم يذكر الصلاة وإنما ذكر أهم أركانها وهي القيام والركوع والسجود). ثم أمره بعد أن يتم بناءه، وأن ينادي الناس داعيًا إلى حج بيت الله – وقد روي أن إبراهيم بعد أن أتم بناء البيت أمره الله بنداء الناس للحج فقال: يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال:أَذِّن وعليَّ الإبلاغ . فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثبكم به الجنة، ويجيركم من عذاب النار فحُجُّوا، «فأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء ممن كتب الله له الحج: لبيك اللهم لبيك»، وقد بيَّن الله أن هؤلاء الحجاج سيأتون سعيًا إلى المسجد الحرام مشاة على أقدامهم أو راكبين جمالاً أهزلها طول السفر من كل مكان بعيد، تلبية لأمر الله ليحققوا بذلك منافع دنيوية بالتجارة في أثناء رحلتهم وما شابهها ومنافع أخروية بإثابة الله لهم على أداء شعائر الحج، وعليهم أن يذكروا اسم الله حينما

ينحرون هداياهم يوم النحر شكرًا له على أن رزقهم هذه الحيوانات التي يأكلون منها من إبل وبقر وغنم وماعز - وهي ما تسمى بالأنعام - ويأمرهم الله أن يأكلوا منها بعد ذبحها ويعطوا منها المحتاجين قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ[1] يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ (الحج: 26- 28).

تعظيم حرمة المسجد الحرام:

لقد اختص الله الكعبة - المسجد الحرام - بكرامته، وجعل لها حرمة، توعد كل من يحاول انتهاكها بأشد العذاب، وأول تعظيم لهذا المسجد الوصف الذي اختصه به وهو «الحرام»، فلا يذكر في القرآن إلا موصوفًا بهذا الوصف - كما سنرى - وذلك للدلالة على أنه مسجد مقدس حرام على كل مؤمن أن ينتهك قدسيته بأي عمل لا يرضى الله عنه، وأول ذلك صد الناس عنه ومنعهم من دخوله وعبادة الله فيه، فقد توعد الله على ذلك بأشد العذاب فقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج: 25).

فقد قرر الله أن المسجد الحرام جعله مَتَعُبَّدًا لجميع الناس يستوي فيه المقيم بمكة (العاكف) أو القادم من غيرها من الأماكن مهما تباعدت (الباد)، فليس لأحد أن يمنع من العبادة فيه أحدًا لأي سبب. كما شدد الله في منع المعاصي فيه أيًا كانت وتوعد

(1) جمل مهزول من كثرة السفر.

بالعذاب الأليم كل من ينحرف عن الحق أو يظلم أحدًا.

وكان المشركون يتحدّون الرسول أن ينزل عليهم العذاب إن كان رسولاً حقًّا. فبعد أن ذكر الله أنه لن يعذبهم ما دام الرسول بين ظهرانيهم، ولن يعذبهم إذا عادوا إلى الحق واستغفروا الله – بين أن الله قادر على أن يعذبهم، وهم يستحقون العذاب لأنهم يصُدُّون الناس عن المسجد الحرام، وليست ولايته إليهم وإنما أولياؤه هم المتقون الذين استجابوا لرسوله فآمنوا بالله، وإن جهل ذلك أكثر المشركين قال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأنفال: 34).

وذمَّ المشركين الذين منعوا الرسول (ﷺ) من دخول المسجد الحرام يوم الحديبية فذكر أنهم يستحقون القتل لأمرين هما الكفر ومنع المسلمين عن دخول المسجد الحرام، ومنع الهَدْي أن يصل إلى مكان ذبحه بمكة: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ﴾ (الفتح: 25).

ومن تعظيم حرمة المسجد الحرام تحريم القتال فيه، إلا إذا اضطر المسلمون إلى القتال – كما حدث يوم فتح مكة – وذلك كي لا يستغل المشركون ذلك فيقتلوا المسلمين عند المسجد الحرام لعلمهم أن المسلمين لا يمكنهم أن يقاتلوا. قال تعالى: ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: 191).

ومن مظاهر تكريمه منع المشركين من الاقتراب منه، وكان يطوفون بالبيت قبل ظهور الإسلام، ويضعون الأصنام فيه فيتعبدون لها فلما انتصر الإسلام أمر الله المسلمين ألا يمكنوهم من ذلك كي لا يدنسوا حرمة المسجد لأنهم نجس، ويسري

هذا الحكم إلى يوم الدين. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ (التوبة: 28).

وأخيرًا جعله الله ملاذًا للخائف فمن دخله كان آمنًا – كما ذكرت قبل –.

الحج والعمرة:

من شعائر الإسلام الحج والعمرة، وقد أمر الله بهما، فأما الحج فهو فرض بالإجماع، وأما العمرة فقد اختُلف فيها فقيل هي فرض كالحج، وقيل هي سنة مؤكدة، واستند كِلا الفريقين إلى مرويات عن الرسول (ﷺ) وبعض الصحابة. وأما القرآن فلم يفرق بينهما فقال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾.

وقال الفريق الذي يرى وجوب العمرة: إن المراد بالإتمام في الآية الأولى هو الأداء، والإتيان بهما على أتم وجه، وقال الفريق الآخر الذي لا يرى وجوبها أن المراد بـ «أتموا» هو إتمام الحج والعمرة عند البدء فيهما، فلا يصح للمسلم إذا نوى الحج والعمرة وأدى بعض شعائرهما أن يترك إتمامهما بل أصبح الإتمام فرضًا عليه.

وسأوجز أوجه الشبه والاختلاف بين الحج والعمرة، فهما يؤديان في مكة ويبدآن بالإحرام من الميقات المحدد، ومحظورات الإحرام فيهما واحدة، وفي كل منهما طواف بالبيت وسعي بين الصفا والمروة، ويختلفان في أن للحج أشهرًا معلومة – سأذكرها بعد – بينما العمرة جائزة طوال السنة، في الحج الذهاب إلى منى يوم الثامن، والوقوف بعرفة يوم التاسع، والذهاب إلى المزدلفة بعد الإفاضة من عرفات ثم الإقامة في منى لرمي الجمار، وكل هذه الشعائر ليست من العمرة.

كيفية العمرة:

تبدأ أعمال العمرة بالنية في أي وقت من السنة، ثم الإحرام من الميقات المحدد لكل بلد أو قبله، والإحرام أن يتجرد المرء من ملابسه المخيطة، ويلبس إزارًا ورداء غير مخيطين، ثم عندما يذهب إلى مكة يطوف بالبيت سبعًا، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعًا ثم يحلق أو يقصر، وبذلك تتم العمرة.

أشهر الحج وبعض آدابه:

حدد الله للحج أشهرًا، ولكن القرآن لم يذكرها، لعلم الناس بها، فقد كانوا يحجون قبل الإسلام في هذه الأشهر بقية من دين إبراهيم عليه السلام.

وهذه الأشهر هي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة، وقال بعض الفقهاء: العشر الأوائل من ذي الحجة فقط، ونلاحظ أن الله قد أعطى فرصة زمنية واسعة قبل الحج: شهرين فأكثر، وذلك مراعاة لمن يأتي من بلاد بعيدة، ولم تكن هناك وسيلة للانتقال إل الدواب أو السفر مشيًا على الأقدام. فمنذ أن يبدأ شوال تجوز نية الحج والإحرام.

وقد أراد الله للحاج أن يكون حجه مبرورًا مقبولاً عند الله فبين أن لذلك ثلاثة شروط، الأول: عدم الرفث. والرفث: هو الحديث عن الجماع ودواعيه ومقدماته وخصوصًا في حضرة النساء، والشرط الثاني: عدم الفسوق، والفسوق: لفظ يشمل جميع المعاصي سواء أكانت متصلة بالحج أم بغيره، والشرط الثالث: عدم الجدال، والمراد بالجدال: الخلاف في الرأي، وتمسك كل واحد برأيه، وتسفيه كل واحد رأي الآخر حتى يغضبه، وأما الجدال العلمي بطريقة رقيقة مهذبة لا تثير حفيظة صاحبه فهو جائز، هذه الشروط إن اجتمعت لإنسان في الحج فحجه مبرور، والحج المبرور

ليس له – كما قال رسول الله (ﷺ) – جزاء إلا الجنة . قال تعالى: ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ ومعنى ذلك أن النهي عن هذه الأمور يبدأ منذ نية الحج والإحرام به فليست مقصورة على الوجود في مكة وممارسة الشعائر.

وقد حث الله المسلمين على الالتزام بهذه الآداب بذكره أن الله يعلم كل خير يفعله الإنسان ويجازيه عليه. كما أمر الله الحجاج أن يتزودوا أي يحضروا معهم زادًا يكفيهم لطريقهم ووجودهم بمكة فقد كان قوم يسافرون دون زاد، وهم قادرون عليه اعتمادًا على غيرهم من الحجاج، فيأكلون معهم، ولكن الإسلام يكره للمسلم أن يعيش على حساب غيره، وتكون يده هي السفلى فأمرهم بالتزود ومع التزود بتقوى الله بطاعته في كل ما أمر، واجتناب كل ما نهى عنه: ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (البقرة: 197).

والأمر بالتزود كان واجبًا عندما كان السفر طويلاً، ومكة بلد قفر، وأما اليوم وقد قصرت المسافات، وازدهرت مكة، وأصبح الزاد يباع في كل مكان أصبح المراد بالتزود أن يكون مع الحاج من المال ما يكفيه نفقة طعامه وشرابه ومسكنه.

شعائر الحج:

ذكر القرآن الكريم بعض شعائر الحج، ولكنه لم يذكرها بالتفصيل، بل أوجز الحديث عنها، ربما لأنها كانت معروفة لدى العرب قبل الإسلام، وورد ذكرها في القرآن لتأكيدها أو تعديلها، والشعائر التي تناولها القرآن هي: الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، وذكر الله عند المشعر الحرام، وذكر الله في منى، والطواف بالبيت، والهدي والقلائد.

الصفا والمروة:

وهما جبلان معروفان بمكة بالقرب من الكعبة، وقد ذكر الله أنهما من شعائر الله، أي من الأمور التي طلب الله من عباده أن يتعبدوا له بها، فليس على الحاج أو المعتمر إثم إذا سعى بينهما – والمطلوب السعي بينهما سبعًا يبدأ بالصفا وينتهي بالمروة ومن تطوع بالعبادات، قاصدًا الخير من الله فإن الله يثيبه على عمله لأن الله شاكر يشكر من تعبد له، عليم يعلم كل ما يأتي به العبد.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: 158).

وأقف وقفة قصيرة عند قوله تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ . فقد يفهم من هذه العبارة أن الأصل هو عدم الطواف، ويجوز الطواف، وليس هذا هو المراد من الآية، ولكنها جاءت بهذه الصورة لأن العرب قبل الإسلام كانوا يطوفون بين الصفا والمروة، وكانت بهما أصنام فكانوا يتمسحون بها، فخشي المسلمون من الطواف بينهما، واعتبروه من شعائر الجاهلية، فطمأنهم الله أنهما من شعائر الله، ولا يأثمون بالسعي بينهما، ويؤيد ذلك ما رواه البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة فقال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله هذه الآية «إن الصفا والمروة...».

وحكم السعي بني الصفا والمروة أنه ركن عند الشافعي ومالك، وابن حنبل فمن لم يسعَ لم يتم حجه، بل عليه أن يعود إلى مكة فيسعى، وقال أبو حنيفة وآخرون إنه ليس بركن، فإن تركه الحاج ورجع إلى بلده يجبره بذبح شاة، وقال فريق ثالث: إنه تطوع وليس في تركه شيء كما قررت الآية، وهذا رأي له سند له لأن الرسول (ﷺ) والصحابة سعوا بينهما.

الإفاضة من عرفات إلى المشعر الحرام:

الوقوف بعرفة هو أهم أركان الحج وأعظمها، فمن لم يقف بها في وقتها المحدد له لم يحج، ومن وقف بها فقد حج، ولذلك قال رسول الله (ﷺ): «الحج عرفة» ولم يذكر القرآن الكريم الوقوف بها؛ لأنه معروف ومشهور، وإنما ذكر الإفاضة منها، واهتم بالشعيرة التالية وهي ذكر الله عند المشعر الحرام فعلى الحجاج حينما يندفعون من عرفات أن يتوجهوا إلى المشعر الحرام وهو المزدلفة فيصلوا بها المغرب والعشاء جمع تأخير، كما صلوا في عرفات الظهر والعصر جمع تقديم، وقد طلب الله من الحجاج أن يذكروه في هذا المكان، وكرر الأمر بالذكر لتوكيده، وذكر الله حق على هؤلاء الحجاج شكرًا لله على أن هداهم إلى الإيمان به، وأداء هذه الفريضة، وقد كانوا قبل الإسلام في ضلال بين، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (البقرة: 198).

وقد أفادت هذه الآية أمرًا آخر، وهو إباحة التجارة في الحج، فقد كانوا يتحرجون من ذلك، خشية أن يكون في التجارة مع الحج شرك بالله، فرفع عنهم هذا الحرج فإن التجارة من فضل الله فلا تتنافى مع الإخلاص.

وكانت قريش قبل الإسلام لا تقف بعرفة مع الناس، بل كانوا يقفون بالمزدلفة، وتعتبرها من الحرم مع مكة، وأما عرفة فتعتبر من الحل، وكانوا يقولون: نحن قطين الله – أي سكان حرمه – فينبغي لنا أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئًا من الحل، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات، وأن يفيضوا منها إلى المزدلفة مع الناس وطلب منهم أن يستغفروا الله على عدم وقوفهم بعرفة من قبل والله غفور رحيم، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ

حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (البقرة: 199).

بعد ذكر الله عند المشعر الحرام يتوجه الحاج إلى منى فيرمي جمرة العقبة، ثم يحلق أو يقصر ويذبح الهدي. وهذه هي مناسك الحج فإذا انتهى منها فعليه أن يذكر الله كما يذكر آباءه أو أكثر من ذكره لهم - فقد كان من عادتهم بعد هذه المناسك أن يقفوا بمنى ويتفاخروا بآبائهم، فيقول كل منهم كان أبي.. وكان.. فأمرهم أن يتحمسوا لذكر الله كما كانوا يتحمسون لذكر آبائهم أو أشد من ذلك، ثم يبين الله أن الناس فريقان، فريق لا يهمه إلا متاع الحياة الدنيا فينصرف إليه بل يدعو الله أن يعطيه من النصيب الأوفر، فهذا الفريق لا حظ له في الآخرة، والفريق الآخر فريق مؤمن لا يبيع الآجلة بالعاجلة، بل يدعو الله أن يعطيه حظه فيهما جميعًا، ويسأل الله أن يقيه عذاب النار، فلكل فريق من الفريقين نصيب مما سعى إليه، وحساب الله سريع لا يتأخر.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ[1] ﴿٢٠٠﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ (البقرة: 200- 202).

الإسلام ليس دين رهبانية، ولا يدعو إلى الزهد، وترك الاستمتاع بما أحله الله، بل هو دين يوازن بين الدنيا والآخرة، ويطلب من المسلم أن يعمل لكليهما معًا، وهذه الآيات خير دليل على ذلك.

---

(1) نصيب.

المبيت بمنى لرمي الجمار:

من شعائر الحج الإقامة بمنى يومين أو ثلاثة ورمي الجمار ولم يذكر القرآن الكريم «منى ولا رمي الجمار» بل طلب من الحجاج أن يذكروا الله في أيام معدودات هي يوم العيد ويومين بعده أو ثلاثة، ولا فرق في الثواب بين من يقيم يومين بعد يوم النحر وبين من يقيم ثلاثة لرمي الجمار فكلا الفريقين لا حرج عليه، ولا إثم على المتعجل ولا على المتأخر، ما دام الحاج متقيًا لله، ثم يدعو الله الحجيج إلى تقوى الله، ويأمرهم أن يعلموا أنه سيجمعهم جميعًا للحساب يوم القيام على ما قدموا من عمل.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة: 203).

الطواف بالبيت:

وهو من أهم أركان الحج، أو هو الركن الثاني للحج بعد الوقوف بعرفة ويسمى طواف الإفاضة أو طواف الزيارة، ووقته بعد التحلل الأول يوم النحر أو بعده وبه تتم أعمال الحج، ويتحلل الحاج تمامًا من كل محظورات الحج، والطواف سبع مرات حول الكعبة يبدأ كل شوط من الحجر الأسود وينتهي به، ولم يذكر القرآن عدد الأشواط، وقد ذكر الله هذا الطواف بعد أن أشار إلى التحلل الأول الذي يأتي بعد الرمي الأول، وقد ذكر الله من مظاهره إزالة النفث من الوسخ الذي يلحق الجسم من عدم الاستحمام، وتقليم الأظافر، والحلق، والتطيب وما إلى ذلك مما يريح الجسم والنفس، وبعد ذلك يوفي الحاج نذره إن كان نذر شيئًا ثم في ختام ذلك الطواف بالبيت العتيق ليكون مسك الختام.

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (المائدة: 2).

قد لا نفهم في عصرنا مدى المعاناة التي كان الحاج يعانيها في إحرامه، فالمواصلات لدينا سريعة، وإحرام الحاج لا يجاوز أسبوعًا، ولكن في العصور السابقة كان الحاج ينوي الإحرام ويظل محرمًا لمدة قد تصل إلى شهر أو أكثر، فلا جرم أن يكون مسرورًا بتحلله، وأن يزيل عنه التحلل أوساخًا كثيرة.

الهدي والقلائد:

وهما من شعائر الحج التي ذكرها الله في القرآن، وهي من أول أعمال الحج ولكني أخرتها لأنها ليست في أهمية الشعائر السابقة، فالهدي هو ما يهدي إلى الكعبة من إبل أو بقر أو غنم ليذبح في منى، وهو ليس واجبًا على كل حاج بل على الذي ينوي الجمع بين الحج والعمرة وكان الرسول (ﷺ) والصحابة في عصره يسوقون الهدي معهم من المدينة – ولم يكن كل الصحابة يسوقون الهدي – وكانوا يُشْعِرونها أو يقلدونها، والإشعار أن يجرحها جرحًا يظل أثره واضحًا في مكان معين من جسمها حتى يعرف من يراها أنها هدى فلا يقربها، ومن هذا الإشعار أخذت كلمة «الشعيرة» أي: البقرة أو الشاة المُشْعَرة، ثم صارت تطلق كلمة الشعيرة إلى جانب هذا المعنى على كل عبادة يتقرب بها إلى الله، وأما التقليد فهو أن يضع الحاج في عنق الهدي شيئًا يبين أنه هدي حتى لا يتعرض له أحد، والتقليد سنة إبراهيم بقيت في الجاهلية وأقرها الإسلام.

وقد ذكر الله الهدي والقلائد ضمن أمور دعا المؤمنين ألا ينتهكوا حرمتها وأولها: شعائر الله، وهو كل ما فرض الله على عباده من طاعات، وثانيها: الشهر الحرام، والشهر الحرام هو الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال وهي: رجب، وذو القعدة،

وذو الحجة، والمحرم، فينبغي للمؤمنين ألا يقاتلوا فيها، ثم الهدي والقلائد فلا يتعرضون لها بسوء، وآخرها القاصدون إلى بيت الله الحرام يريدون التجارة والحج.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ﴾[1].

محظورات الحج:

محظورات الحج ذكرتها الأحاديث، وكتب الفقه، وذكر القرآن بعضها ومحظورات الحج هي الأمور التي لا ينبغي للحاج فعلها بعد إحرامه، وإذا فعلها فعليه دم أو كفارة، وقد ذكر القرآن محظورين من محظورات الحج وقد ذكرتها قبل ذلك، ولكني أذكر بعض تفصيلات فيها.

حلق المحصر رأسه قبل أن يبلغ الهدي محله: قد يتعرض الحاج المحرم لخطر يحول بينه وبين إتمام الحج، فإذا كان هذا الخطر مما لا يستطيع دفعه أنهى إحرامه دعا إلى بلده، ولكنه قبل أن يفعل ذلك يرسل هَدْيًا – شاة – لتذبح في المكان المخصص للذبح وهو منى، يرسلها مع من يستطيع توصيلها، وهذا قد يستغرق وقتًا طويلاً، يظل فيه المحرم على إحرامه، ولا يحل له الإحرام حتى يمر من الوقت ما يسمح بذهاب الهدي إلى مكان الذبح وذبحه، في هذه الأثناء قد يحس المحرم بمرض أو بأذى في رأسه من كثرة القمل الذي يتوالد فيه فمن تيسير الله على المحرم أن أجاز له حلق رأسه قبل مضي الوقت الملائم لوصول الهدي محله، وعليه كفارة من صيام أو صدقة – وقد ذكرت ذلك في باب الزكاة والصيام – أو نسك وهو شاة تذبح وتفرق على الفقراء والمساكين.

---

(١) الحج (29) – المائدة (2).

قال تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ (البقرة: 196).

الصيد: نهى الله عن الصيد في أثناء الإحرام، ومن قتل صيدًا في أثناء الإحرام وهو متعمد فعليه أن يبعث هديًا ليذبح عند الكعبة، وهذا الهدي يكون مماثلاً للحيوان الذي اصطاده، يقوم ذلك رجلان عدلان، أو يطعم مساكين، أو يصوم، وقد مر تفصيل ذلك في زكاة الكفارات.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾.

وقد ذكر الله في الآية الحكمة من هذا الجزاء، وذلك ليتعظ المحرم فلا يصطاد الحيوان وقد وعد الله بالعفو عما مضى من المحرم من قتل الصيد، ولكنه توعد الذي يعود إلى ذلك بالانتقام منه أشد انتقام.

وقد أباح الله للمحرم أن يصيد من البحر، وأن يأكل منه فقد جعله الله متاعًا للمحرمين، ولغيرهم من المسافرين، وأما صيد البر فهو محرم على المحرم مدة إحرامه، ثم أمرهم أن يتقوه فيجتنبوا ما نهى عنه لأنه سيجمعهم إليه للحساب يوم القيامة قال تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (المائدة: 96).

وقد حذر الله المؤمنين قبل ذلك من الصيد مبينًا لهم أنه سيختبر إيمانهم بشيء من الصيد يجدونه سهلاً في طريقهم، يستطيعون إمساكه بأيديهم، أو أخذه برماحهم، وذلك ليظهر واضحًا من يطيع أمر الله، وهو لا يراه، فيكون جزاؤه عظيمًا، وأما من اعتدى على الصيد بعد هذا التحذير فيكون عذابه أليمًا، (وما أشبه ذلك بما فعله الله مع بني إسرائيل الذين كانوا يعتدون في السبت، فكان يملأ لهم البحر سمكًا كافيًا أمامهم يوم السبت، ثم يختفي عنهم في غير أيام السبت).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ (المائدة: 94).

وهناك محظورات أخرى سبق ذكرها، وهي الرفث والفسوق والجدال، ولكنها محظورات ليس فيها فدية وإنما تخرج الحج عن أن يكون مبرورًا.

* * *

الذكر والدعاء

ولا تقتصر العبادة على الفرائض الأربعة التي سبق ذكرها، بل هناك عبادة هامة أمر الله بها وحث عليها وتتمثل في أمرين: الذكر، والدعاء، وسأتناول كلا منهما ذاكرًا ما ورد فيهما من آيات.

الذكـــر:

أما الذكر فقد حث الله عباده على ذكره، وأغراهم على ذلك بأن بين لهم أنه سيذكر كل ممن ذكره، وذكر الله للإنسان معناه رحمته، وإثابته على ذكره قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: 152).

ويدخل في الذكر كل ثناء على الله وتمجيد له بأية عبارة تفيد ذلك، ومن أكثر عبارات الذكر ورودًا، التسبيح: أي قول العبد: سبحان الله، أي أنزهه عن كل نقص، وأعيذه من كل عيب، والتحميد، أي قول العبد: الحمد لله، أي أثني عليه وأشكره، على ما أولانا من نعم، والتكبير: أي قول العبد: الله أكبر من كل كبير من خلقه، والتهليل: أي قول: لا إله إلا الله، أي الإقرار بأنه الواحد المنفرد بالعبودية.

وقد ورد في القرآن الكريم الدعوة إلى تسبيح الله في عدة آيات: منها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

(الأحزاب: 41، 42).

والآيـة تدعو إلى أن يكون التسبيح دائمًا ومتصلاً فهو يشمل النهار من طرفيه – البكرة: الصباح، والأصيل: المساء – ومثلها قوله تعالى مخاطبًا زكريا بعد ما بشرته الملائكة بيحيى: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾ (آل عمران: 41) وقوله تعالى مخاطبًا رسوله محمدًا (ﷺ)، وينسحب هذا على أمته: ﴿ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴾ (طه: 130) وقد أضافت هذه الآية إلى معنى الآيات السابقة التسبيح في أوقات الليل. وقال تعالى: ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الطور: 48) و(الواقعة: 74) و(الحاقة: 52).

وقد ذكر الله في القرآن الكريم أن كل ما في الكون يسبح لله وكرر ذلك في مفتتح عدة سور: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الحديد: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ والحشر والصف، والجمعة ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ والتغابن: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ .

وقد ذكر الله في القرآن أن الملائكة يسبحون الله فقال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [1]. فهم دائمو التسبيح لله، لا ينقطع تسبيحهم، ولا يغتر لحظة واحدة، ومثله قوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [2]. أي إذا استكبر هؤلاء الكفار عن عبادة الله وتسبيحه فعنده الملائكة يسبحونه ليلاً ونهارًا لا يكلون ولا يملون.

(1) الأنبياء (30).

(2) فصلت (38).

وليست الملائكة وحدهم الذين يسبحون، بل الرعد أيضًا: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الرعد: 13) والجبال والطير: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ﴾[1]. وخلاصة القول أن كل شيء في الوجود يسبح بحمده كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: 44).

وكثيرًا ما يقترن التسبيح بالحمد، ويكون المعنى أننا ننزهك عن كل نقص، مقرين بالحمد لك والثناء عليك كقوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (الحجر: 98) وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ﴾ (الفرقان: 58) وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ (غافر: 55) مع آيات أخرى كثيرة.

وأما التحميد فقد ورد أيضًا في آيات كثيرة، ورد على لسان الله سبحانه وتعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ (الأنعام: 1) وقوله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنعام: 45)، وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: 70).

وورد على لسان الأنبياء، فإبراهيم يقول شكرًا لله أن رزقه الولد على الكبر: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (إبراهيم: 39) وداود وسليمان يشكران الله على تفضيله إياهما على كثير من المؤمنين: ﴿ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النمل: 15).

(1) الأنبياء (79).

وورد على لسان المؤمنين عندما يلقون جزائهم الكريم من الله: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ (الأعراف: 43) وكذلك قول الله عنهم: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (يونس: 10).

كما أمر الله به رسوله (ﷺ): في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ (الإسراء: 111) وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ (النمل: 59)، وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل: 93) كما أمر به نوحًا عليه السلام عندما ركب السفينة: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (المؤمنون: 28) وأمر عباده المؤمنين أن يقولوا الحمد له بإخلاص: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (غافر: 65).

وأما التكبير فقد أمر الله به عباده المؤمنين فقال بعد ما يسر لهم الأمر في صوم رمضان وبعد إكمالهم الصوم انه يريد منهم تكبيره على هدايته إياهم لصوم رمضان: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ (البقرة: 185) كما ذكر – في سورة الحج – بعد ما طلب منهم نحر البُدْن – الإبل – بعد إتمام الحج، أنه جعل هذه البدن مسخرة لخدمته ليأكلوا منها ويركبوها، ويحملوا عليها، فواجبهم أن يكبروا الله على ما هداهم إليه من هذا الأمر: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج: 37) كما أمر الله رسوله محمدًا (ﷺ) أن يثني على الله الذي ليس له ولد ولا شريك في ملكه، ولا نصير يحميه من الذل؛ لأنه العزيز الذي لا يذل، وأن يكبره تكبيرًا، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ

ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴾ (الإسراء: 111) كما أمره في سورة المدثر أن يترك غطاءه ويقوم لينذر الناس بدعوته وأن يكبر ربه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴾ (المدثر: 1- 3).

من أجل ذلك أمر الرسول (ﷺ) ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بالتسبيح والتحميد والتكبير، فقد روى الشيخان أنه قال لهما: «إذا آويتما إلى فراشكما فكبرا ثلاثًا وثلاثين، وسبحا ثلاثًا وثلاثي، وأحمدا ثلاثًا وثلاثين».

وأما لا إله إلا الله، فهي عماد الدين، وكلمة الإسلام، وما أكثر ورودها في القرآن الكريم، وقد أمر الله رسله جميعًا أن يؤكدوا هذه الحقيقة لقومهم فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 25). وأمر رسوله أن يقولوها لقوله: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ (ص: 65) كما قال له: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ (القتال: 19).

وكان قول يونس: «لا إله إلا الله» سبب نجاته من الغم الذي كان يعانيه في بطن الحوت.. ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ (الأنبياء: 87، 88).

وهناك صيغ أخرى لذكر الله، وإن كانت لا تخرج عن معاني العبارات السابقة فمن ذلك قوله (ﷺ): «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»، وروى الشيخان عن ابن عباس أن رسول الله (ﷺ) كان

يقول عند الكرب: «لا إله إل الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش الكريم»، كما رويا عن أبي موسى أن النبي (ﷺ) قال له: «قل: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة».

أجر ذاكري الله:

أثنى الله على من يذكره، وأشاد به في القرآن الكريم، وبين أجره العظيم، ففي سورة آل عمران يذكر أن في خلق السموات والأرض، وتعاقب الليل، لأدلة واضحة على وجود الله وقدرته لمن منحه الله عقلاً يفكر ويتأمل، ثم يصف هؤلاء العقلاء بأنهم يذكرون الله في جميع أحوالهم من قيام أو قعود أو اضطجاع، ويتأملون في خلق السموات والأرض، ويقرون بأن هذا الخلق العظيم له هدف فلم يخلقه الله سدى، ويدعون الله أن يقيم عذاب النار المخزي، فقد آمنوا عندما دعاهم الرسول إلى الإيمان، ويسألونه غفران ذنوبهم، وأن يتوفاهم مع خير المؤمنين، فاستجاب الله دعاءهم، ووعدهم بخير الثواب، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ ثم تذكر الآيات أن الله استجاب لهم واعدًا أنه لا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى فهم سواء، ثم يذكر نوعيات من هؤلاء الذاكرين وهم المهاجرون الذين اضطهدوا في سبيل الله، فلم يثنهم ذلك عن الجهاد في سبيل الله والاستشهاد لهم أحسن الثواب عند الله، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ

أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾

(آل عمران: 190- 195).

وفي هذه الآيات كثير من الدعاء، والدعاء لون من الذكر، لأن اتجاه المؤمن بقلبه فيه إقرار بربوبيته، وتعظيم لقدرته كما سأبين.

وذكر الله رجالاً عابدين في المساجد لا تشغلهم التجارة ولا البيع عن ذكر الله وأداء الفرائض المكتوبة عليهم؛ خوفًا من يوم الحساب الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار، ووعد أن يجزيهم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (النور: 36 – 38).

أثر ذكر الله في نفوس المؤمنين:

ولذكر الله أعظم الأثر في نفس المؤمنين، فمن أهم سماتهم أنهم عندما يسمعون ذكر الله تخشع قلوبهم، وإذا قرئ عليهم القرآن ازداد إيمانهم وهم دائمًا يتوكلون على الله، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، وهؤلاء المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حقًّا، وسيرفعهم الله درجات عنده، ويغفر لهم ما سلف من ذنوبهم، ولهم رزق كريم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: 2 – 4).

وقد استخدم القرآن أداة القصر «إنما» في أول الآيات ليفيد حصر الإيمان في المتصفين بهذه الصفات، ثم ذكر في الآية الثانية كلمة «حقًّا» ليؤكد هذا المعنى.

والمؤمن قد يعصي الله، ويرتكب الفحشاء، ولكنه يذكر الله بعد ذلك فيندم ويتوب ويستغفر الله موقنًا بأنه لا أحد يغفر الذنوب غيره، فيقبل الله توبته، ويسلكه في عداد من يدخل الجنة التي عرضها السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ (آل عمران: 133 – 136).

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: 201) فالآية تبين أن المتقين قد يتعرضون للمعاصي بسبب وسوسة الشيطان لأنهم بشر، ولكنهم عندما يتذكرون الله وعظمته وقدرته عليهم وحساب الآخرة يندمون على ما فعلوا ويعودون إلى الجادة.

ومن سمات المؤمنين اطمئنان قلوبهم، وسكينة نفوسهم عند ذكر الله. قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ (الرعد: 28) وطلب الله من رسوله أن يبشر مجموعة من المؤمنين أولهم الذين تخشع قلوبهم عند ذكر الله، ثم الصابرين على قضائه، والمقيمي الصلاة، والمتصدقين: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ (الحج: 34– 35).

وفي نفوس الكافرين:

وإذا كانت نفوس المؤمنين تخشع عند ذكر الله، وقلوبهم تضطرب، فإن الكافرين على عكس ذلك، فإذا سمعوا ذكر الله وحده، نفروا من الرسول وابتعدوا عنه، وتقبضت قلوبهم واشمأزت، أما إذا سمعوا ذكر شركائهم من دون الله سروا واستبشروا، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ﴾ (الإسراء: 46) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ (الزمر: 45).

وأما المنافقون فهم مضطرون إلى النفاق، وإظهار الإسلام مراءاة للناس، فهم يحاولون خداع الله بتظاهرهم بالعبادة، ولكن الله يعلم خداعهم وسيحاسبهم عليه فهم يقومون إلى الصلاة وهم كسالى، ويذكرون الله ذكرًا قليلاً تظاهرًا ومن أطراف ألسنتهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾.

أماكن الذكر وأوقاته:

ليس للذكر أماكن معينة، ولا أوقات محددة، بل هو مطلوب في كل مكان وعلى أية

حالة، وفي أي وقت، ولكن هناك أماكن أعدت خصيصًا للذكر، فإذا دخلها الإنسان أو مكث فيها فعليه أن يذكر الله كثيرًا، وهذه الأماكن هي المساجد أو بيوت الله، وقد مرت بنا الآية الكريمة: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ وقد توعد الله الذين يمنعون الناس من ذكر الله في المساجد بأن يخربوها أو يصدوا عنها المصلين الذاكرين الله، بأن ينزع الأمن من قلوبهم، بإعلاء كلمة الإسلام فإذا أرادوا دخول هذه المساجد لأمرها، لا يدخلونها إلا وقد ملأ الخوف قلوبهم، وأنه سيخزيهم في الدنيا، ويعذبهم أعظم العذاب في الآخرة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: 114) وبين الله أنه شرع الجهاد الذي يقتل فيه الناس لتمكين المؤمنين من أداء شعائر دينهم، ولولا ذلك لتهدمت بيوت العبادة عند عباد النصارى واليهود، ومساجد المسلمين التي يذكر الله فيها كثيرًا. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: 40).

وقد قال رسول الله (ﷺ): ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»، وتلاوة القرآن هي أعظم الذكر، فالقرآن كله ذكر: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[1].

ومن الأوقات التي ينبغي فيها ذكر الله ما سبق ذكره في أيام الحج: عند المشعر الحرام، وبعد انقضاء المناسك: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ

(1) البقرة: 198، الزخرف/ 44 وقد سمى الله القرآن: «الذكر» إنا نحن نزلنا الذكر.

كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ وفي أيام منى ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾، والحق أن وقت الحج كله ينبغي أن يكون ذكرًا لله.

وينبغي الإكثار من ذكر الله عند لقاء العدو لعل الله يكتب لهم النصر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال: 45).

ولابد أن يذكر اسم الله عند ذبح الحيوان للأكل، فإذا لم يذكر اسم الله عمدًا فلا يجوز أكله لأن تعمد عدم ذكر الله فسق يسبب تحريم الأكل من المذبوح، قال تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنعام: 188) وقال: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾ (الأنعام: 121).

ومن الأوقات التي ينبغي فيها ذكر الله كثيرًا عقب الصلاة، حتى لو كانت صلاة الخوف: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء: 103) وعقب صلاة الجمعة: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الجمعة: 10) وهذه الآية تبين أن الذكر لا يمنع من العمل، بل يقترن به، فليس هناك ما يمنع المسلم من أن يذكر الله وهو يعمل، فالإسلام يكره أن ينقطع المسلم للعبادة، كما يكره أن يكف عن ذكر الله لانشغاله بالعمل.

نلاحظ أن الأمر بذكر الله في كثير من آيات القرآن يقترن بوصفه بالكثرة، فالله يحب من المسلم أن يكثر من ذكر الله، وأن يكون مع الله دائمًا، ولم يصفه بالقلة، إلا في حالة المنافقين ﴿ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

طريقة الذكر:

بينت الآيات السابقة أن المسلم ينبغي أن يذكر الله بأية طريقة، وعلى أية حال، ومع ذلك فقد أرشدنا الله إلى خير طريقة للذكر، وهي أن يذكر العبد ربه بينه وبين نفسه وهو في حالة خشوع وتذلل وخوف من الله، وأن يكون ذلك في خفاء عن الناس كي لا يلتبس بأدنى قدر من الرياء، وأن يكون بصوت خافت لا يبلغ الجهر والعلانية، وأن يكون ذلك في طرفي النهار: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ (الأعراف: 205).

والخطاب في الآية السابقة موجه إلى الرسول (ﷺ)، ولكن أي أمر يؤمر به الرسول خاص بالعبادة يشمل المسلمين جميعًا فهو نبينا ولنا فيه الأسوة الحسنة كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ (الأحزاب: 21).

* * *

الدعاء

وهو من أعظم العبادات وهو نوع من ذكر الله؛ لأن الداعي يمجد ربه، ويقر بربوبيته وقدرته، ويعرف أنه ملجأ الخائف، وملاذ المضطر، ولذلك وُصِف بأنه مخ العبادة وهو اعتراف من الداعي بأنه لا أحد ينفع أو يضر إلا الله، وهذا الاعتراف غريزة ركزها الله في كل نفس، حتى الكافر، فلذلك يضرع إلى الله حينما يدركه الخطر عالمًا أنه لا ينجيه إلا الله يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾ (الإسراء: 67). وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (النحل: 54).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم: 34، 35).

فالناس جميعًا سواء - مؤمنهم وكافرهم - في اللجوء إلى الله إذا أصابتهم مصيبة، ولكن الكافر سرعان ما ينسى نعمة الله عليه ويشرك به غيره، وقد ذكر الله أنه هو الذي - ولا أحد غيره - يجيب المضطر الذي وقع في خطر لا يستطيع أحد أن ينقذه منه، فيجيب الله دعاءه ويكشف عنه السوء. ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ (النمل: 62).

وقد حث الله الناس على دعائه، ووعدهم بالاستجابة له، وأوعد الذي يستكبر عن دعائه وعبادته فسيدخل النار ذليلاً صاغرًا ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: 60) وقد مر بنا في فصل «الصوم» الآية القرآنية: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

شروط الدعاء المستجاب:

وعد الله بإجابة الدعاء كما أوضحت الآيتان السابقتان، ولكن المحقق والواقع أن الله لا يستجيب كل دعاء، فنحن نشاهد من أنفسنا وممن حولنا أننا ندعو فلا يتحقق أحيانًا ما ندعو إليه كما نريد، فما معنى هذا؟ معناه أن الله لا يقبل الدعاء إلا بشروط: أهمها شرط الإخلاص لله، وأن يكون الإنسان مطيعًا لأوامر الله مجتنبًا نواهيه عاملاً بكتابه وسنة نبيه، متجنبًا لأكل الحرام، والوقوع في الإثم، ولعلنا نفهم هذا من قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: 55، 56) فالآيتان تضمنتا بعض شروط الدعاء المستجاب، فلابد أن يدعو المؤمن ربه في تضرع وتذلل وخشوع، وأن يكون في خفاء عن الناس كي لا يكون فيه شبهة ورياء، وألا يعتدي - والاعتداء يشمل جميع المعاصي لأن المعصية اعتداء على أمر الله، وألا يكون مغترًّا بدعائه، متأكدًا من قبول الله له، بل يكون قلبه بين الخوف من رفض الله له والطمع في قبوله له؛ لأن ذلك يشعر بتقوى الله، ثم يكون من المحسنين الذين أحسنوا أقوالهم وأعمالهم وسلوكهم.

وقد بين الرسول (ﷺ) في أحد أحاديثه، سر عدم استجابة الله للدعاء، فأكد بذلك

أهم شرط من شروط الدعاء وهو تجنب المؤمن الحرام في كل مجالات حياته، فقد قال: «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك؟» والاستفهام في آخر الحديث على جهة الاستبعاد من قبول دعاءِ مَنْ هذه صفته.

ومن شروط إجابة الدعاء ألا يعجل الداعي في وقوع الإجابة، فإذا لم تقع قنط من رحمة الله، ويئس من رجائه، ويقول: دعوت ربي فلم يجبني؛ لأن القنوط من سمات الضالين ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ (الحجر: 56) واليأس من سمات الكافرين: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (يوسف: 87) وقد أكد الحديث النبوي ذلك، قال (ﷺ): «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت ربي فلم يستجب لي».

ومن شروط القبول أيضًا ألا يكون الدعاء متضمنًا أمرًا حرامًا يستحق الدعاء عليه العقوبة، كأن يدعو اللص أن ييسر الله له طريق السرقة، أو أن يكون في دعائه ما يؤدي إلى قطع الأرحام التي أمر الله بها أن توصل.

فإذا تحققت هذه الشروط في الدعاء استجاب الله للداعي، ولكن ليس بلازم أن يستجاب ما طلبه الداعي تمامًا، فقد يعلم الله أن في إجابة دعوة الداعي بذاتها ما يفسد عليه دنياه أو آخرته بعد ذلك، لذلك أخبرنا الرسول (ﷺ) أن الله قد يعجل للداعي دعوته، أو يدخرها له في الآخرة، أو أن يمنع عنه من السوء مثلها، قال (ﷺ): «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها».

أدعية قرآنية:

تضمن القرآن الكريم عديدًا من الأدعية، بعضها أدعية لأنبياء، وكانت أدعية الأنبياء، أحيانًا دعاء بالهلاك على قومهم، لما يئسوا من إيمانهم كدعاء نوح على قومه:

﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا[1] ﴾ (نوح: 26) ولكن نوحًا لم يكن غليظ القلب، فلم يدع هذا الدعاء إلا بعد أن لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فكذبوه، ولذلك نراه يعقب على هذا الدعاء ببيان سببه، وهو أن تركهم سالمين لن ينتج عنه إلا أن يتكاثر نسلهم الذي سيرث ما هم عليه من ضلال وكفر: ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح: 27).

وقد سبق هذا الدعاء من نوح أدعية أخرى له يطلب فيها النصرة من الله عليهم:

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ (القمر: 10).

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (المؤمنون: 26).

وهو مع المؤمنين رقيق القلب يدعو لهم بالمغفرة والرحمة: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾.

ولكنه لا ينس الكفار فيدعو عليهم بالهلاك:

﴿ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾[2] (نوح: 28).

وأما إبراهيم أبو الأنبياء، والجد الأعلى للرسول (ﷺ)، فدعاؤه يقطر رحمة ورقة، فهو يدعو ربه للبلد الحرام «مكة».

---

(1) أحدًا.

(2) هلاكًا.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (البقرة: 126).

ويدعو ربه أن يجعله وابنه إسماعيل وذريتهما أمة مسلمة، وأن يرشدهم إلى معرفة مناسك الحج، وأن يتوب عليهم:

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 128).

ثم يدعو هذه الدعوة المباركة بإرسال رسول إلى ذريته يكون منهم أي من جنسهم - العرب - لكي يعلمهم القرآن، وما فيه من أحكام، ومبادئ للسلوك القويم، ويطهر أنفسهم من الشرك والانحراف من سواء السبيل: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129).

ومن دعائه أيضًا:

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ (إبراهيم: 40، 41).

وقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

(الشعراء: 83- 89).

ويدعو موسى ربه عندما كلفه بحمل الرسالة، أن يوسع صدره، فلا يضيق

بما سيجابهه به فرعون من كبرياء وغطرسة، وأن يسهل أمره في لقائه به وأن يحل العقدة التي في لسانه كي يستطيع أن يبين لفرعون وقومه بما يدعوهم إليه (فقد كان بلسانه ثقل وصعوبة عند الكلام) ثم يطلب منه أن يؤيده بأخيه هارون مشيرًا ومعينًا، وأن يكون شريكًا له في الرسالة، ويشفع هذا الدعاء، بأنه وأخاه هارون سيؤديان حق استجابة هذا الدعاء وهو التسبيح الكثير لله، والذكر الكثير له، ثم يُخْتَم الدعاء بخطاب الله لهما أنه مطلع على أحوالهما ويعلم أن إجابة هذا الدعاء ضرورة لنجاح الرسالة، وقد استجاب الله دعاء موسى، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ (طه: 25 – 36).

ويدعوه – قبل الرسالة – عند قتله رجلاً مصريًا دون قصد: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (القصص: 16).

ولما يئس موسى من إيمان قومه، بعد ما أراهم معجزات كثيرة تدل على نبوته فكذبوه فاتجه إلى الله يدعوه أن يمحق أموالهم، وأن يجعل قلوبهم أكثر قسوة فلا تتقبل الإيمان كي لا يغفر الله لهم، ويذيقهم العذاب الأليم، وقد استجاب الله دعاء موسى وأخيه هارون وطلب منهما أن يستقيما، ولا ينحرفا إلى طريق الكافرين: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

(يونس: 88، 89).

ونلاحظ أن موسى ذكر أسبابًا لدعائه بالهلاك عليهم، وهي أنهم قابلوا نعمة الله التي أنعم بها عليهم من أموال وزينة بالجحود، فاستغلوا هذه النعم في الإضلال عن سبيل الله.

وشعيب كذبه قومه، وتوعدوه ومن آمن معه بإخراجهم من قريتهم، فكان دعاؤه أن يحكم الله بينه وبين قومه بالحق: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (الأعراف: 89).

وأيوب - مثال الصبر ورمزه - يبتليه الله بالمرض، فعندما يشتد عليه لا يجد ملجأ يلجأ إليه إلا الله، فلا يملك إلا أن يعرض أمره عليه، تاركًا له الأمر والحكم، فهو يعلم بما ينفعه: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ فيستجيب الله لهذا النداء فيكشف عنه ضره، ويجزيه خيرًا مما أخذ منه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ (الأنبياء: 84).

وأما سليمان فهو يطلب الملك، الملك العريض الذي لا يتاح لأحد من بعده، ولكنه قبل ذلك يطلب المغفرة من الله: ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾. ويستجيب الله له فيسخر له الريح تجري بأمره، والشياطين يفعلون له كل ما يريد: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (نوح: 27).

وزكريا يحزنه ألا يولد له ولد يرثه، ويظل وحيدًا فيدعو ربه: ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (ص: 35 - 38). فيستجيب الله لدعائه ويرزقه بيحيى، ويصلح الله له زوجه لتنجب، ويعلل الله قبول دعائه بأنه

كان وزوجه يسارعان في الخيرات ويدعوانه رغبة في رضاه، وخوفًا من سخطه: ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

(الأنبياء: 89- 90).

وهكذا نلاحظ أن دعوة الأنبياء مستجابة، وذلك لأنهم صفوة خلقه، ولا يدعون إلا بعد أن يفيض بهم الكيل، وتعييهم الحيل، ولا يدعون إلا بأمور تتصل بالدين.

وأما رسولنا محمد (ﷺ) الذي نزل عليه القرآن، فكان الله يوحي إليه بما ينبغي أن يقوله من دعاء، ولذلك يسبق دعاء النبي لفظه «قل» والآمر هو الله. ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: 80)، ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (المؤمنون: 118).

وحملة العرش من الملائكة يدعون الله، ولكن دعاءهم من أجل المؤمنين فهم لا يطلبون لأنفسهم شيئًا، فيستغفرون للمؤمنين التائبين عن خطاياهم ومعاصيهم، والمتبعين طريق ربهم، ويسألون الله أن يحميهم من عذاب الجحيم، وأن يغفر لهم ذنوبهم، ويدخلهم جنات عدن التي وعد بها المؤمنين، ومن كان صالحًا من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (غافر: 7، 8).

والمؤمنون في كل زمان ومكان يدعون ربهم، وأكثر دعائهم طلب المغفرة والرحمة،

فهم يطلبون منه أن يوفقهم في الدنيا فيعطيهم نصيبًا حسنًا منها، وأن يثيبهم في الآخرة ثوابا بإحسنا، ويصرف منهم عذاب النار. ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (البقرة: 201) وبنو إسرائيل في عهد داود عندما تأهبوا لقتال عدوهم جالوت طلبوا من الله أن يملأ نفوسهم صبرًا على القتال، وأن يثبت أقدامهم، وينصرهم على أعدائهم الكافرين: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: 250)، ثم هذا الدعاء الجامع الشامل الذي يدعو به المسلمون من أمة محمد (ﷺ) فيسألون الله المغفرة، ثم يطلبون ألا يؤاخذهم إن نسوا أمرًا من أمور دينهم أو أخطأوا فيه، وألا يحمل عليهم من التكاليف ما يشق عليهم كما فعل مع الأمم السابقة بسبب تمردهم وعصيانهم، وأن تكون التكاليف على قدر ما يطيقون، وأن يعفو عنهم ويغفر لهم ويرحمهم فهو سيدهم الذي يعلم حالهم، وأن ينصرهم على الكافرين أعداء الدين، قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: 285، 286).

ونلاحظ أن المؤمنين قدموا لدعائهم بإعلان السمع والطاعة لكل ما أمرهم به الله، وهذا من شروط استجابة الدعاء، وقد بادر الله فقرر أنه لن يكلف نفسًا أكثر مما تطيقه من التكاليف.

والراسخون في العلم الذين آمنوا بكل ما جاءهم من عند ربهم، سواء أفهموا

الحكمة منه أم لم يفهموا – على عكس المنحرفين عن الإيمان الذين يتبعون المتشابه من القرآن ليثيروا البلبلة في نفوس المسلمين – يدعون ربهم أن يعصمهم من الزلل بعد أن وفقهم إلى اتباع منهجه، وأن يرحمهم برحمته قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ (آل عمران: 7، 8).

والمقاتلون مع أنبيائهم من الأمم السابقة، انتصارًا لدين الله، لم يجبنوا ولم يضعفوا أمام أعدائهم، ولم يكن لهم قول إلا طلب المغفرة من الله لذنوبهم، وتجاوزهم حدود الله، وأن يثبت أقوامهم وينصرهم على الكافرين أعداء الدين. قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: 146، 147).

نلاحظ تقديمهم طلب المغفرة على طلب النصر؛ لأن الله لا ينصر من يخالف عن أمره، وسحرة فرعون لما آمنوا بموسى بعد ما رأوا معجزاته الباهرة توعدهم فرعون بأشد العذاب فلم يأبهوا له، وأعلنوا أنه لا ذنب لهم عند فرعون إلا إيمانهم بآيات ربهم لما جاءتهم، ثم اتجهوا إلى الله يدعونه أنه يملأ نفوسهم صبرًا على ما توعدهم به فرعون من العذاب، وأن يميتهم على دين الإسلام: ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ (الأعراف: 126).

وأصحاب الكهف عنده أووا إلى الكهف فرارًا بدينهم من مضطهديهم الوثنيين

سألوا الله أن يهبهم رحمة من عدنه، ويوفقهم إلى الرشاد والسداد: ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف: 10).

ومن دعاء المؤمنين لربهم في الدنيا الذي كان مدعاة لسخرية الكافرين بهم فحاق بهم العذاب من أجل ذلك: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (المؤمنون: 109).

ومن دعاء عباد الرحمن دعاء يتعلق بالآخرة فهم يسألون الله أن يصرف عنهم عذاب جهنم؛ لأن عذابها دائم لازم غير مفارق للمعذبين: ﴿ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان: 65).

ودعاء يتعلق بخيري الدنيا والآخرة فيسألون الله أن يجعل لهم في الأزواج والذرية مسرة وفرحًا لتمسكهم بطاعته، وأن يجعلهم في أعمالهم الصالحة وسلوكهم قدوة للمتقين: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: 74).

والمسلمون من أمة محمد (ﷺ) يدعون ربهم طالبين منه المغفرة والرحمة لهم، ولمن سبقهم بالإيمان، وألا يجعل في قلوبهم ضغينة ولا حقدًا على أي أحد من المؤمنين، فإنك شديد الرأفة، عظيم الرحمة، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ (أي من بعد المهاجرين والأنصار) يقولون: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحشر: 10)؟!

والمسلمون في عهد الرسول (ﷺ) كانوا يدعون ربهم ألا يسلط عليهم الكفار فيفتنوهم عن دينهم بعذاب لا يطيقونه، وأن يغفر لهم ويرحمهم بعزته وحكمته

﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الممتحنة: 5).

والمؤمنون وهم يجتازون الصراط، ونورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم - يسألون الله أن يتم هذا النور ويديمه حتى يصلوا إلى الجنة، وأن يغفر لهم ما فرط من ذنوبهم فهو قادر على كل شيء: ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

(التحريم: 8).

هذه نماذج تشمل معظم ما ورد في القرآن من دعاء، ونلاحظ أن أكثرها ينصب على طلب المغفرة والرحمة، والصبر على الجهاد في سبيل الله ونصرة دينه، وهذا ما ينبغي على المؤمن أن يتوخاه في دعائه متجهًا إلى نيل غفران الله ورضوانه، والفوز بالنجاة في الآخرة، فالآخرة خير وأبقى، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

* * *

الاستغفار والتوبة

والاستغفار – أيضًا – لون من العبادة، فهو إقرار بربوبية الله سبحانه، وقدرته على عباده، وإيمان بيوم الحساب، والله يحب أن يستغفره عبده، ويتوب إليه، ويفرح بتوبة عبده العاصي فرح رجل ضال في الصحراء، نام قليلاً ثم استيقظ فلم يجد جمله، فاغتم لذلك، وأخذ يبحث عنه، ولما عاد إلى مكانه وجد جمله، كما جاء في الحديث الشريف، وقد وعد الله التائبين بغفران ذنوبهم؛ لأنه هو الغفار: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾ (طه: 82).

وقد تكرر عشرات المرات في القرآن الكريم وصف الله نفسه بأنه «غفور رحيم» فواجب المسلم أن يكثر من استغفار الله، والتوبة إليه، حتى لو ظن أنه لم يرتكب إثمًا، فقد قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: 31).

وقد دعا الرسل قومهم إلى الاستغفار والتوبة، فهذا نوح عليه السلام يدعو قومه إلى الاستغفار، ويبين لهم عاقبة استغفارهم وهو أن الله سيرسل عليهم المطر الغزير الذي يخصب أرضهم، ويهبهم الأموال والبنين، ويجعل بلادهم كثيرة الخيرات: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ (نوح: 10– 12).

وهذا هود عليه السلام يدعو قومه أيضًا إلى الاستغفار والتوبة، ويعدهم بأن الله سيرسل عليهم – عقب استغفارهم المطر الغزير، ويزيدهم قوة على قوتهم.

وصالح عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله، فليس لهم إله غيره، فقد أنشأهم من الأرض بخلق أبيهم آدم منها، ثم مكنهم من الإقامة فيها وإعمارها، ثم يطلب منهم استغفار ربهم، والتوبة إليه، فهو قريب منهم يسمع استغفارهم، ويجيب رجاءهم: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (هود: 61).

ورسولنا محمد (ﷺ) يدعو قومه إلى استغفار ربهم، والتوبة إليه، وستكون عاقبة ذلك، أن ينعم الله عليهم بطيب العيش وسعة الرزق إلى أن يحين أجلهم: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (هود: 3).

ونلاحظ أن أربعة من رسل الله جعلوا عاقبة الاستغفار زيادة الخير في الدنيا، إلى جانب مغفرة الله ذنوب المستغفرين، وإنعامه عليهم بجنته.

وقد أثنى الله على المستغفرين بالأسحار، وجعل لهم - مع مجموعة أخرى من عباده المؤمنين - جنات تجري من تحتها الأنهار، وأزواجًا مطهرة، إلى جانب رضا الله عنهم، قال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران: 15 - 17).

بل ساوى الله بين الذين يفعلون الفاحشة، ويظلمون أنفسهم بالمعاصي، ولكنهم يتوبون إلى الله، ويستغفرونه؛ لأنهم علموا أنه لا يغفر ذنوبهم إلا الله، وأقلعوا عن معاصيهم، ولم يصروا عليها - ساواهم بالمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء، والذين يكتمون غيظهم، فلا يعاجلون أعداءهم بالعقوبة، والذين يعفون عن

الناس الذين ظلموهم، فجعل جزاءهم مثلهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾

(آل عمران: 133- 136).

كما جعل الله من عباد الرحمن الذين يجزون الجنة يوم القيامة من يرتكب إحدى الكبائر، ثم يتوب إلى الله، ويؤمن به ويعمل صالحًا، وسيبدل الله سيئات هؤلاء حسنات، بعد أن كان مصيرهم إلى النار يخلدون فيها مهانين أذلاء لو لم يتوبوا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾ (الفرقان: 68- 70) ثم يقول بيانًا لجزاء عباد الرحمن، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾

(الفرقان: 75).

وهكذا تمحوا التوبة السيئات، ويغفر الله بها الذنوب، فالله - كما وصف نفسه - ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ (غافر: 3) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ (الشورى: 25).

ومهما عظمت الذنوب، وكثرت المعاصي، فلا ينبغي للمؤمنين أن ييأسوا من رحمة الله، بل عليهم أن يتوبوا إليه، وسيغفر لهم ذنوبهم جميعًا؛ لأنه غفور رحيم، قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الزمر: 53) ذنب واحد قرر الله أنه لن يغفره، وهو الإشراك بالله، وهذا أمر طبيعي فشرط قبول العمل الصالح من العبد هو الإيمان بالله وحده، كما سبق ذكره قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ (النساء: 116) وأتوقف قليلاً عند قوله تعالى: ﴿ لِمَن يَشَآءُ ﴾، فهل غفران الله ذنوب عباده ليس له شرط إلا المشيئة، دون اعتبار لموقف العبد؟ ظاهر الآيات قد يفهم هذا، فقد وردت عدة آيات تقرر هذا، مثل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(آل عمران: 129).

وأنا أؤمن أن كل شيء خاضع لمشيئة الله، وأنه هو القاهر فوق عباده، ولا يسأل عما يفعل، ولكنه غفور رحيم كما ذكر ذلك عشرات المرات، ولا يظلم مثقال ذرة، ولا يظلم الناس شيئًا، وهذا يجعلني أفهم المشيئة على أن المراد بها أن الله يغفر لمن أخلص نيته في التوبة، وكان ندمه على ما اقترف من ذنب ندمًا حقيقيًّا، ويعذب من تاب رياء، ولم يشعر بندم حقيقي على ما فعل، بل كانت توبته عجزًا، وعندما يجد القدرة على اقتراف الذنب يقترفه، فكلا الرجلين تاب، ولكن شتان ما بين النِّيتَيْنِ، والله يحكم على النيات.

شروط قبول التوبة:

تنبئنا آيات كثيرة في القرآن الكريم أن التوبة ليست مجرد إعلان يعلنه العاصي،

ويردده بلسانه، دون أن يظهر أثره في العمل، فمثل هذه التوبة لا قيمة لها، وتدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ ولكن التوبة المقبولة هي التي يظهر أثرها في عمل الإنسان، فيصلح من نفسه، ويصلح من عمله، وقد وردت آيات عدة تقرن التوبة بالإصلاح مثل قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 160) وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (آل عمران: 89). وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 146) وقوله تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: 39) ، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: 54).

وأكتفي بهذا القدر من الآيات ففيه الكفاية، ولكني أذكر آية دعا الله فيها إلى التوبة، وصفها بأنها النصوح، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ (التحريم: 8) والنصوح هي الصادقة، واشترط لها العلماء ثلاثة شروط: أولها: الندم على ما فعل. وثانيها: العزم على ألا يعود إلى هذا الذنب ثانية. وثالثها: رد حقوق الناس إليهم التي تاب بسببها.

بقي للتوبة المقبولة شرط آخر، وهو شرط الوقت، فلابد أن يكون وقت التوبة قبل شعور الإنسان بدنو أجله، وتأكده من حضور الموت كأن يمرض مرضًا يتأكد أنه لا شفاء منه، أو يُحْدِق به خطر يتأكد أن حياته لن تنجو منه، فالتوبة في مثل هذه الحالات

كتوبة فرعون التي ذكرتها الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ ويرد الله عليه ساخرًا: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (يونس: 90، 91).

وقد ذكر الله آيتين يبين فيهما زمن التوبة المقبولة، وزمن التوبة غير المقبولة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ (النساء: 17، 18).

وقد قال رسول الله (ﷺ): «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

* * *

التشريعات الاجتماعية

وهي التشريعات التي تتصل بالعلاقات الاجتماعية بين الناس، وقد عنى الإسلام بتنظيمها وتهذيبها، وجعل منها دعامة لمجتمع فاضل تشيع فيه المحبة والمودة ويكتنفه الاستقرار والنظام.. وأهم هذه العلاقات هي العلاقة بين الأسرة الواحدة.

العلاقات الأسرية:

الزواج:

الزواج هو أساس الأسرة، ومُنْشِئها، واللبنة الأولى في صرحها وقد حث الإسلام على الزواج، ووردت في القرآن آيات تحض عليه، فأول ذلك ذكر الحكمة من خلق المرأة، وهي أن تكون سكنًا للرجل الأول، وهو آدم، لتستريح نفسه إليها، ويجد في كنفها الحب والحنان: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ (الأعراف: 189). كما امتن على الناس بتوفيقهم إلى بناء الأسرة، والإنعام عليهم بالأزواج اللائي ينشأ من الاتصال بهن وجود البنين، ثم ينشأ من زواج البنين وجود الحفدة فيسعد الناس، وتقر أعينهم، ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ (النحل: 72) ولنتأمل قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ فهي توحي بقرب المرأة من قلب الرجل وروحه، فهي جزء من نفسه، وكذلك قوله «بنين» فلم يقل «أولاد» التي تشمل البنين والبنات، بل أثر لفظ «بنين» لأنه النوع الذي يحبون أن يكون ثمرة زواجهم.

وقد اعتبر القرآن الكريم إنشاء الأسرة من دلائل قدرته تعالى، وآية من آياته، ثم بين الحكمة التي ينبغي أن تتحقق من الزواج، وهي سكن الرجل إلى المرأة وسكنها إليه، وشعور كل منهما بالاطمئنان لوجوده بجانب الآخر، كما نتج عن هذه العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة الحب والتراحم والإيناس وفي هذا الأمر دلائل قوية على رحمة الله وقدرته وإنعامه على عباده، لا يفهمها إلا الذي يتأمل ويتفكر ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: 21).

وقد بدأ الله هذه الآية بأن اعتبر إنشاء الأسرة آية من آياته، ثم ختمها بأن في هذا الإنشاء آيات لكل من يستخدم فكره ويتدبر، ولكي نعرف القيمة العظمى للأسرة في حياة المجتمع البشري، نفترض فرضًا آخر في تكاثر الناس بأن يخلق الله نوعًا واحدًا من البشر هم الرجال فقط أو النساء فقط، ويتكاثرون بطريقة تكاثر ذوات الخلية الواحدة، كيف يكون طعم الحياة، وأين يجد هذا النوع الواحد السكن والمودة والرحمة، ولنتأمل لفظ «لتسكنوا» الذي اختاره القرآن للتعبير عن هدف الزواج فسنجد فيه أقوى تعبير على العلاقة الزوجية التي لم يجعل الله المتعة الجنسية هدفها الأول، وهي متعة لحظية لا تلبث أن تنطفئ بعد تقدم العمر أو اعتلال الصحة، وإنما الذي يبقى هو السكن الذي يوحي بكل معاني الاستقرار والاطمئنان والراحة النفسية، مما أشبه السكن الذي يتحقق بالزواج، يسكن الهائم الشريد الذي لا يجد مستقرًّا يستقر فيه، فكيف يكون حاله إذا وجد بيتًا خاصًّا به يأوي إليه كلما شاء؟ وهكذا حال الرجل بعد زواجه، ولا يغيبن عن البال أن المراد كلا الزوجين، فليس الأمر مقصورًا على الرجل، بل المرأة تجد السكن في رجلها، وإنما كان الخطاب موجهًا إلى الرجل لأنه

هو عماد الأسرة وله حق القوامة فيها، ولذا نجد في آية أخرى يتحدث القرآن عن كل منهما: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: 187) فكل من الرجل والمرأة لباس للآخر، أي ستر له، وصون وحماية وإعفاف.

وقد أمر الله صراحة بالزواج فقال تعالى: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (النور: 32، 33).

فالله يأمر في هذه الآية بتزويج غير المتزوجين رجالاً ونساء من الأحرار وكذلك من العبيد، فالأيامي جميع أ يِّم وهو غير المتزوج رجلاً كان أو امرأة سواء سبق له الزواج أو لم يسبق، والمراد بالعباد العبيد جمع عبد - أي غير حر - والإماء جمع أمة وهي الجارية، وقد استخدم القرآن لفظ النكاح، ولم يستخدم لفظ الزواج فقال: أنكحوا، وسنجد أيضًا ألفاظ «تنكحون، وتنكحون، والنكاح» مكررة في القرآن الكريم، ولما كان كثير من الناس يفضلون زواج الغني أو الغنية حثهم الله على عدم الاهتمام بهذا الأمر، ووعد بأن الفقراء سيغنيهم الله من فضله إما بأن يكثر ما لهم، وإما بأن يبارك لهم فيهن، ولهن فيهم.

وأعود إلى قوله تعالى: « وانكحوا» وهو من الإنكاح أي التزويج، فالأمر هنا موجه إلى ولي الأمر فعليه أن يزوج من يكفلها لمن يتقدم إليها من الخاطبين الصالحين ولا يرفض بحجة أنه فقير أو ليس له جاه.

ولكن ليس كل الناس قادرين على التزوج، مثل هؤلاء حثهم الله على الاستعفاف أي بذل كل جهد في مقاومة أنفسهم، وجعلها عفيفة لا تحاول أن تحقق شهواتها من حرام، وقد فتح الله أمامهم باب الأمل فذكر أن الله سيغنيهم من فضله.

والحر يتزوج حرة، والعبد يتزوج أمة حرصًا على حرية الأولاد، فلو تزوج العبد حرة لصارت أولاده عبيدًا، ولكن إذا عجز الحر عن دفع مهر الحرة لضيق ذات اليد أباح الله زواج الأمة بشرط أن تكون مؤمنة، وأن يوافق سيدها على الزواج وأن يدفع لها مهرها، وأن تكون عفيفة، وليست بغيًّا أو تتخذ أخلاء كما كان يحدث في الجاهلية، قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ (النساء: 25).

والمحصنات جمع محصنة وهي العفيفة، وقد يطلق اللفظ على المتزوجة لأن الزواج يُعفها، وقد خفف الله الأمر على الذي يتزوج أمة بأن بين له أن هذا لن ينقص من إيمانهم شيئًا – كما كان يظن بعضهم – فحقيقة الإيمان بين المرء وربه المطلع على سرائره، وكذلك يذكر أن الإماء المؤمنات لا يختلفن في شيء عن الأحرار المؤمنين، والحرائر المؤمنات، فأساس التفاضل في الإسلام هو الدين (وقد انتهى هذا الحكم الآن لإلغاء الرق).

الإسلام يساعد على العفة:

عندما يأمر الإسلام بأمر لابد أن يوجد المناخ الذي يساعد على تنفيذ هذا الأمر، وقد أمر الله بالاستعفاف، فكان لابد أن يضع الأسس التي تعين على تنفيذ هذا الأمر، وأول ذلك: الأمر بغض البصر من الرجال والنساء، فلا يجوز للمؤمن أن ينظر إلى امرأة غير محرم له فيطيل النظر إليها، وكذلك المرأة المؤمنة لا ينبغي أن تطيل النظر إلى رجل غير محرم لها، ولما كان الأمر بغض النظر سببه الخشية من الوقوع في الزنى أتبع

ذلك بالأمر بحفظ الفرج من الرجل والمرأة على حد سواء فغض النظر هو السبب المحتمل للوقوع في الزنى فحرمه أولاً، ثم أكد ذلك بحفظ الفرج وهو الغاية من تحريم النظر وذكر الله أن الامتثال للأمرين يؤدي إلى طهارة النفس والجسم التي يتطلبها الإسلام، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور: 30، 31).

ولكن على المرأة عبء أكبر، فقد اقتضت حكمته – لكي يستمر النسل – أن يجعل في المرأة جاذبية تغري الرجال بها، وتدفعهم إلى الاتصال بها، والاستمتاع بمفاتنها، فلو ترك الحبل على الغارب لتحول المجتمع البشري إلى مجتمع حيواني، وأصبحت المتعة هي الغاية، وضاع السكن والمودة والرحمة، كما يحدث في كثير من مجتمعات عصرنا.

وأحب أن أؤكد قبل أن أسترسل في بيان مسئولية المرأة في هذا الصدد – أن كون المرأة موضع الفتنة، ومثار الإغراء لا ينقص من قدر المرأة شيئًا، كما يدعى ذلك دعاة المساواة الزائفة – فالله قد خلقها هكذا، وجعل وظيفتها الأولى حفظ النسل، وهيأها بما يساعدها على ذلك من وسائل الجاذبية والإغراء، كما جعلها مهد الجنين، ومخرجته – بإذن الله – من ظلمات الرحم إلى نور الحياة.

إن كثيرًا من المفسدين في الأرض يبذلون كل جهد لكي يسلخوا المرأة من إهابها الذي وضعها الله فيه إهاب العفة، فاخترعوا كثيرًا من الوسائل التي تجعل المرأة أكثر فتنة، وأكثر إثارة للرجال من عطور، ووسائل تجميل متنوعة، وثياب تظهر أكثر مما تخفي، ونجحوا في جعل كثير من النساء لا يخجلن من عريهن – كما دعا إلى ذلك

حكماء صهيون - ولكن الإسلام يحترم المرأة، ويحفظ جمالها وعفافها لرجل واحد هو زوجها، الذي بدوره عليه أن يكون خالصًا لها؛ لا أن تكون حمى مباحًا لكل طامع ومتاعًا رخيصًا لكل ناظر أو لامس.

من أجل هذا دعا القرآن الكريم المرأة ألا تظهر زينتها الخفية إلا لأشخاص معينين هم محارمها - أي من لا يحل لهم الزواج بها - وهم الأزواج، أو الآباء، أو آباء الأزواج، أو الأبناء، أو الإخوة وأبناؤهم، أو أبناء الأخوات، أو النساء المسلمات اللائي يدخلن عليهن لأمر من الأمور، وكذلك إماؤهن - حتى لو كن غير مسلمات - أو الخدم من الرجال الذين يتأكد عدم قدرتهم على الجماع لمرض أو عاهة، والأطفال الصغار الذين يدركون معنى الجماع ودواعيه - هؤلاء جميعًا يباح لهم الاطلاع على الزينة الخفية من المرأة فلا بأس أن يروا رأسها مكشوفًا أو ذراعيها أو رجليها، وأما الزينة الظاهرة فلا بأس أن يراها جميع الناس - مع مراعاة غض البصر الذي أمر الله به قبل ذلك - وقد حذر الله المرأة من محاولة إظهار الزينة الخفية بحيلة من الحيل، كأن تضرب المرأة برجلها، وليسمع صوت خلخالها، وإلى جانب النهي عن إظهار الزينة، أمر الله المرأة بأن تضرب الخمار على صدرها لتستر نحرها وصدرها، والخمار هو غطاء الرأس، وكانت المرأة في الجاهلية تغطي رأسها، وتسدل باقي الخمار على ظهرها، فينكشف نحرها وصدرها، فأمر الله المسلمات بستر الصدر والنحر بإسدال الخمار عليهما.

قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ

أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ [1] مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: 31).

الخمر: جمع خمار، والجيوب جمع جيب وهو فتحة الثوب من أعلى، والبعولة: جمع بعل وهو الزوج، ويلاحظ أن القرآن لم يستعمل الزوج للرجل إلا في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ ﴾ (البقرة: 232) وأما ما ورد في غير هذه الآية في القرآن الكريم من لفظ «زوج» أو «أزواج» فيقصد به المرأة أو النساء، فإذا أراد التعبير عن الزوج الرجل استخدم لفظ «بعل» كقوله تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا ﴾ (النساء: 128) وقوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ﴾ (هود: 72) أو بعولة كآية النور السابقة. وقوله تعالى: ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ (البقرة: 228).

وقد ختم الله آية النور السابقة بقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وكأنه يريد أن يطمئن المؤمنين إلى أن الله يقبل توبة العبد عما بدر منه قبل ذلك، وينبهه إلى أن مخالفة هذه الأوامر إثم يستحق التوبة منه.

كما أمر الله النساء جميعًا من زوجات النبي وبناته إلى جميع نساء المؤمنين أمرهن بأن يرخين من فضل جلابيبهن على رؤوسهن ونحورهن، وقد يغطي ذلك جزءًا من وجوههن - ويبدو أن الجلباب كان رداء فضفاضًا فطلب من النساء أن يضعنه من فوق رؤوسهن وصدورهن ثم ينسدل على أجسامهن، وقد علل الله ذلك بأن وضع

---

(1) الحاجة إلى النساء.

الجلباب بهذه الطريقة يدل من يراه على أنهن نساء عفيفات، ولسن إماء مستهترات بالفسوق، فيبتعد الفساق عن طريقهن، ويتقين أذاهم وختم الله الآية - كما ختم الآية السابقة بأنه غفور رحيم، يغفر لمن تقصر في ذلك غير عامدة، أو تابت عن تبرجها، وكذلك يغفر لمن يؤذي النساء وذلك إذا أقلع عن أذاه وتاب إلى الله.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ (الأحزاب: 59).

وإن ما يحدث في عصرنا من اختطاف للنساء، واغتصاب لهن لخير برهان على عظمة الحكمة الإلهية، فمعظم المخطوفات كن يسرن سافرات متبرجات.

ولم يكتف القرآن بالدعوة إلى غض البصر، وأمر النساء بالحجاب، بل لعن كل من يقذف النساء العفيفات البعيدات عن الشبهات من نساء المسلمين بالزنى وأعد لهم عذابًا عظيمًا في الآخرة عندما تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بأقوالهم الخبيثة، وأعمالهم السيئة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (النور: 33، 34).

كما توعد الذين يحبون شيوع الفاحشة في المجتمع الإسلامي، ويعملون على إشاعتها فيه بالعذاب الأليم، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (النور: 19).

أما عذاب الدنيا فهو ما شرعه الإسلام من الحدود والتفرعات المناسبة كما سنرى، وأما عذاب الآخرة فهو عذاب جهنم.

وقد ابتلى عصرنا بكثير ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فمنتجوا الأفلام الخليعة في السينما يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ومقدمو الأغاني الهابطة المسفة يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، والمسئولون عن تقديم البرامج المثيرة للغرائز في التليفزيون يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، ومشجعو العري بين النساء، وتشجيعهن على ارتداء الملابس التي تكشف أكثر مما تستر يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وواجب الدولة المسلمة أن تطبق عليهم العقوبات التي تردعهم، ثم ينتظرهم عذاب الله في الآخرة.

المحرمات من النساء:

حرم الله على الرجال الزواج من فئات معينة من النساء، وسنلاحظ أن بعض هؤلاء المحرمات كانت الحكمة من حرمتهن صيانة الرجل من أن يُنْتَهَك شرفه، وتداس كرامته إذا تزوج بواحدة منهن، مثل الزانيات والمشركات أو تزوجت المسلمة بواحد منهم، فقد حرم الله على المسلم أن يتزوج زانية كما حرم على المسلمة أن يتزوجها زانٍ، فقال تعالى: ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: 3).

لكن إذا تابت الزانية، أو تاب الزاني، واستقامت أمورها، وظهر صلاحهما فلا بأس من الزواج بهما ولكن قبل ذلك فهو حرام، وقد بين الله الحكمة من ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ (النور: 26) والمراد بالخباثة هنا ارتكاب الفواحش.

ولصيانة شرف المسلم والمسلمة، والحفاظ على استمساك كل منهما بدينه حرم الله زواج المسلم بالمشركة، وزواج المسلمة بالمشرك، والمراد بالشرك عبادة غير الله، سواء

أعبد الله معه أم لم يعبده، ويدخل فيه أيضًا إنكار وجود الله كما يفعل الملحدون، وكثير من الشيوعيين والعلمانيين، فهؤلاء إذا أعلنوا شركهم وكفرهم بالقول أو بالفعل يحرم الزواج بهم، ولو حسبوا في الإحصائيات من المسلمين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة: 221).

والفرق بين «تَنْكحوا» الأولى، و«تُنكحوا»، الثانية، أن معنى الأولى: لا تتزوجوا المشركات، والخطاب موجه للرجال الذين يريدون الزواج، ومعنى الثانية: «لا تُزَوِّجوا» المشركين بناتكم، والخطاب موجه لأولياء النساء اللائي سيتزوجن.

وقد بين الله في الآية الحكمة من هذا النهي، وهو أن المشركين والمشركات يدعون إلى النار، أي يحضون كل من يتصل بهم على الكفر بالله بكل الوسائل الممكنة، والكفر بالله بكل الوسائل الممكنة، والكفر بالله عاقبته النار.

ولا تدخل الكتابيات أي المعتنقات للديانة اليهودية أو المسيحية مع المشركات في تحريم الزواج منهن، بل يحل الزواج منهن بنص القرآن الكريم فقد وردت آية تحل للمسلمين الطعام الطيب الذي أحله الله، كما تحل لهم الأكل من طعام أهل الكتاب. وكذلك تحل لهم الزواج من العفيفات من المسلمات ومن الكتابيات بشرط دفع المهر، وأن تكون النية الزواج بطريقته التي شرعها الله لا بغير ذلك من الطرق، أو اتخاذ خليلات. قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ

إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ﴾[1].

ولم تذكر الآية حل زواج اليهودي أو النصراني من المسلمة، ولذلك فلا يجوز، والحكمة من إباحة الزواج بالكتابية، لأنها تؤمن بالله، وفي دينها حصن على الأخلاق الطيبة، وتعظيم الله وتمجيده، وأما تحريم زواج اليهودي أو النصراني من المسلمة فقد روعي فيه أمران: الأول أن الولد يتبع الأب لا الأم في دينه، فابن المسلم من النصرانية أو اليهودية سيكون مسلمًا، وأما ابن المسلمة من زوجها غير المسلم فسيتبع دين أبيه، الأمر الآخر أن للرجل القوامة على المرأة نفوذًا مؤثرًا عليها قد يدفعها إلى ترك دينها، أو عدم تمكينها من أداء فرائضها.

وأما باقي المحرمات فقد كانت الحكمة من التحريم الحفاظ على العلائق الأسرية محترمة نظيفة بعيدة عن كل دنس، وقطع الطمع والرغبة، وسد باب الشهوة أمام من اقتضت ظروف الأسرة أن يطلع بعضهم على بعض، ويرى كل من الآخر ما لا يراه الأجانب، وهؤلاء المحرمات حرم بعضهن عن طريق النسب وحرم بعضهن عن طريق المصاهرة أو الرضاعة كما سنرى.

وقد أفرد الله آية لتحريم زوج الأب، وقد كان ذلك شائعًا في الجاهلية، وقد اعتبره القرآن فاحشة، وأمرًا كريهًا شنيعًا، ومن أسوأ سبل الزواج. قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (النساء: 22) ثم جمع بقية المحرمات معًا في الآية التالية، وهؤلاء المحرمات هن: الأم، والبنت، والأخت، والعمة، والخالة، وبنت الأخ، وبنت الأخت، وهؤلاء هن المحرمات من النسب، وحرم بسبب الرضاعة الأم من

---

(1) المائدة (5)، والأخدان جمع خِدْن وهو الخليل أو الخليلة.

الرضاعة، أي المرأة التي أرضعت الطفل فإذا كبر فلا يجوز له الزواج منها، وكذلك الأخوات من الرضاعة والمصاهرة أم الزوجة، وابنة الزوجة من رجل آخر – وتسمى ربيبة وجمعها ربائب – ولا تحرم ابنة الزوجة على زوج أمها إلا إذا تم زواجه من أمها ودخل بها فعلاً، أما إذا عقد عليها ولم يدخل بها ثم طلقها يحل له أن يتزوج من البنت، وأما البنت فمجرد العقد عليها يُحَرِّم أمها حتى لو طلقها قبل أن يدخل بها، وكذلك يَحْرُم بسبب المصاهرة حلائل الأبناء، أي زوجات الأبناء بشرط أن يكون الأبناء أبناء حقيقيين أي من صلبه، وأما إن كانوا أبناء بالتبني فزواجهن حلال، وقد أحله الله بطريقة عملية حيث أمر رسوله أن يتزوج زينب بنت جحش، وكانت زوج زيد بن حارثة الذي تبناه الرسول (ﷺ) وكان يُدْعَى زيد بن محمد حتى نهى الله عن التبني فقال تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (الأحزاب: 4، 5)، وقد صرح الله بالحكمة من أمر الرسول بزواج زينب زوج زيد، وهي رفع الحرج عن المسلمين في الزواج من أزواج أبنائهم بالتبني، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (الأحزاب: 37).

وكل النساء السابق ذكرهن محرمات تحريما أبديًّا، فإذا دخل الرجل بالمرأة ثم طلقها، وانقطعت صلته بها، لا يحل له الزواج بابنتها أبدًا، وكذلك الأم لا تحل له أبدًا وإن طلق ابنتها.. وهكذا، ولكن هناك محرمات تحريمًا وقتيًّا وهي أخت الزوجة طالما

بقيت زوجته في عصمته، فإذا طلقها وانقضت عدتها جاز له الزواج بأختها، فالمحرم هنا الجمع بين الأختين في وقت واحد، والحكمة واضحة وهي الحفاظ على المودة والحب بين الأخوات، وعدم إشعال نار الغيرة والحسد بينهما، ومن المحرمات تحريمًا مؤقتًا أيضًا المرأة المتزوجة طالما هي متزوجة فإذا طلقت وانقضت عدتها جاز الزواج منها، واستثنى الله من ذلك الأمة التي تسبى في الحرب، ويبقى زوجها في دار الكفر، فيحل الزواج منها بعد طهرها من أول حيض تحيضه؛ للتأكد من أنها ليست بذات حمل، وذلك لأن الكفر بقطع الصلة بين المرأة وزوجها بمجرد سبيها، ثم بين الله أن هذه المحرمات تحريمهن فرض من الله على عباده المؤمنين، ويحل للمسلمين ما وراء ذلك من النساء على شرط أن يكون الهدف الزواج المشروع لا غيره من ألوان السفاح والمخادنة.

قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ (النساء: 23، 24).

وقد حرم الرسول (ﷺ) – بوحي من ربه – نساء أخريات فحرم من الرضاع كل امرأة تحرم مثلها من النسب، فإذا كان القرآن نص على تحريم الأم من الرضاعة

والأخت من الرضاعة، فقد وسع الرسول دائرة التحريم بالرضاعة، فشملت الخالة من الرضاعة والعمة من الرضاعة أي أخت زوج المرضعة، وبنت الأخ أو الأخت من الرضاعة وهكذا، قال (ﷺ): «تحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، وهذا أمر جدير بالتنبه له، فإن كثيرًا من الناس لا يدركون ذلك فيقعون في المحظور.

كذلك حُرّم الجمع بين الزوجة امرأة لو كانت رجلاً لا يصح للزوجة الزواج منها كالعمة والخالة وبنت الأخت، ولكن القرآن لم يذكر ذلك.

المهــر:

ويشترك لصحة عقد الزواج أن يدفع الزوج - أو يَعِدُ بالدفع - قدرًا من المال لزوجته يسمى مهرًا، ولا يصح العقد بدونه، ولم يسميه القرآن مهرًا بل سماه (صَدُقة) بفتح الصاد وضم الدال، فقال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾ (النساء: 4)، وقد اعتبر القرآن المهر منحة من الزوج لامرأته، وأنه حق للمرأة لا تُكْرَه على التنازل عنه، ولكن إذا طابت نفسها بالتنازل عن بعضه فللزوج أن يأخذه حلالاً طيبًا.

قال تعالى تعقيبًا على المحرمات وأن غيرهن حلال: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ (النساء: 24) وقد قرر الله في هذه الآية أن المهر فريضة، وكرر ما ذكره في آية النساء من أن المرأة قد تتنازل عن بعض المهر على أن يكون ذلك عن رضا وطيب خاطر، وأنه لا إثم على الزوج في أخذ ما تنازلت عنه.

وقال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ

حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ (المائدة: 5).

ولم يحدد القرآن الكريم قدر المهر فليكن قليلاً أو كثيرًا، المهم أن ترضى الزوجة بالمهر وقد ورد في القرآن أن المهر قد يكون كثيرًا حتى يبلغ قنطارًا من الدراهم؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ﴾ (النساء: 20).

ولكن الرسول (ﷺ) رغب في أن يكون المهر قليلاً كي لا يعجز الرجل عن دفعه، فقال: «أقلهن مهورًا أكثرهن بركة» ولكنه أبى أن يتزوج رجل دون مهر، فعندما أتى إليه رجل يريد الزواج، وسأله عن المهر، فلما أجاب أنه ليس معه مال مهما قل، فسأله هل تحفظ شيئًا من القرآن، فأجابه بأنه يحفظ بعض سور القرآن، فزوجه بما معه من القرآن وقال لآخر: «التمس ولو خاتمًا من حديد» ليكون مهرًا.

وقد حذر القرآن تحذيرًا شديدًا من استرداد المهر، أو أخذ جزء منه من المرأة بعد طلاقها، فنهى أولاً عن العادة السيئة التي كانت متبعة في الجاهلية، وهو إرث المرأة بعد موت زوجها فإذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاءوا تزوجها أحدهم، وإن شاءوا زوجوها غيرهم، وإن شاءوا منعوها الزواج، ونهى ثانيًا عن التضييق على الزوجة لتتنازل لزوجها عن بعض صداقها إلا في حالة واحدة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ (البقرة: 19) واعتبر أخذ جزء من المهر باطلاً وظلمًا وأعظم ذنب، ثم سأل الذي يريد أخذه كيف يفكر في أن يأخذ شيئًا من المهر بعد هذه العلاقة الحميمة بينه وبين زوجته، واستمتاع كل منهما بالآخر، وأخذن

منهن الميثاق الغليظ المتمثل في عقد النكاح، والذي عبر عنه الرسول (ﷺ) بقوله: «اتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾

(النساء: 20، 21).

تعدد الزوجات:

أباح الله تعدد الزوجات حتى أربع، ولا تجوز الزيادة على أربع، بشرط مراعاة العدل بينهن في كل شيء في الطعام والكسوة والسكنى والمبيت معهن فلا يفضل واحدة على الأخرى في أي شيء من الأمور السابقة، وخصوصًا المبيت والمكث معهن، وقد ورد النص على هذه الإباحة في سياق التوصية بعدم ظلم الفتيات اليتيمات اللاتي تحت وصاية الرجل، فإذا خاف الرجل من عدم إعطائها إذا تزوجها من مهر ونفقة؛ لأنها لا وَلِيَّ لها غيره، وهو المتصرف في أمورها فقد يغريه هذا بالافتئات على حقوقها، فطلب الله منه ألا يتزوجها وأمامه من النساء الكثيرات، يستطيع أن يتزوج ما شاء منهن اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا، فإذا خشي ألا يحقق العدل بينهن، فليكتف بواحدة، أو بما في حوزته من إماء، والاقتصار على واحدة أقرب إلى تحقيق العدل، والبعد عن الظلم. قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ (النساء: 3).

وقد صرح الله في آية أخرى أن العدل المطلق بين النساء غير مستطاع مهما حرص الزوج على تحقيقه، والمراد بالعدل في هذه الآية هو العدل في المشاعر والإحساسات،

فالقلوب بيد الرحمن يصرفها كيف شاء، فقد يجد في نفسه ميلاً لواحدة لا يجده للأخرى وهذا أمر لا يملكه، فعلى الزوج ألا يجعل هذا الأمر النفسي ذا تأثير في معاملته لأي منهن، فيهمل واحدة منهن أو أكثر فتصير كالمعلَّقة ليست متزوجة ولا مطلقة، نهى الله عن ذلك، وأمر بتقوى الله فيهن، ومعاملتهن معاملة متساوية، وكان الرسول (ﷺ) يقول: «اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك فاغفر لي ما لا أملك» يريد بما يملك المعاملة الظاهرة، وبما لا يملك المشاعر النفسية التي لا يملك لها دفعًا، قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

(النساء: 129).

وأقف وقفة لأوضح موقف الإسلام من تعدد الزوجات، وبيان الحكمة التي يتوخاها من ذلك ويتجاهلها (ولا أقول يجهلها) أعداء الإسلام، فأذكر أولاً بعض الاعتبارات المتصلة بموقف الإسلام من تعدد الزوجات، وأول هذه الاعتبارات أن الإسلام أباح التعدد، ولم يفرضه، بل حث على الاقتصار على واحدة، لأنه أقرب إلى العدل ﴿فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ ثانيًا أن التعدد كان شائعًا في المجتمع الجاهلي العرب، وفي المجتمعات الأخرى دون حد، ودون اعتبار لواجب العدل بين الزوجات، حتى الأنبياء السابقون كانوا يعددون زوجاتهم، ويقال إن سليمان كانت له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة جارية، وفي الحديث الصحيح أن سليمان قال: «لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل. فطاف عليهن جميعًا، فلم تحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وايم الذي نفس محمد بيده لوقال: إن شاء لجاءوا فرسانًا

أجمعون»، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ فجاء الإسلام بتحديد العديد بأربع، وبالدعوة إلى مراعاة العدل، وثالثها أن الإسلام هو الدين الخاتم الذي لن يعقبه دين، وهو دستور البشرية جمعاء إلى أن تقوم الساعة فكان لزامًا أن يراعى كل ظروف البشر مهما اختلفت أزمنتهم وأمكنتهم، وفي الزواج رجال منحهم الله طاقة جنسية لا تشبعها امرأة واحدة، كما أن في النساء من تزهد المعاشرة الزوجية، فكيف يكون الحال لو اجتمع رجل عنده الطاقة الكبيرة مع امرأة زاهدة، لابد أن يبحث عن امرأة أخرى تشبهه، ولن يكون ذلك إلا حرامًا، كما أن الزوجة قد تمرض، والزوج حريص على إبقائها معه لرعايتها، وفي زمن الحروب عندما يموت عدد كبير من الرجال، ويبقى العدد الأكبر من النساء فهل يبقين أرامل، أو عوانس؟ وأيهما أفضل للمرأة أن تكون شريكة مع زوجة أخرى لرجل يعاملها كما يأمره الإسلام بالعدل، ويساويها مع ضرتها في كل شيء أو تظل محرومة من الرجل، ومن الاستمتاع به، ومشاركته إياها في أحزانها وأفراحها؟

لو أن أعداء الإسلام من الغربيين، ومن يدور في ملكهم من المنتسبين إلى الإسلام اقتصر معظمهم على امرأة واحدة هي زوجته - ولم يشرك معها غيرها سرًّا أو علنًا عن طريق السفاح والمخادنة لعذرناهم في عدم فهمهم للإسلام، لكن من المعروف المؤكد أن الذين لا يؤمنون بتعدد الزوجات، وينظرون إلى المسلمين من أجله على أنهم همج شرهون إلى النساء - أكثرهم إن لم أقل كلهم - لا يكتفون بامرأة واحدة، بل يتقلبون بين الخليلات، وقد بلغت بهم الإباحية إلى عدم التورع عن إعلان ذلك على الملأ، وظهور الرجل مع خليلته في كل مكان، فأيهما أكرم للمرأة أن تكون زوج الرجل مع أخرى أو أخريات، ولكنه ملزم أن يسوي بين جميعهن في المعاملة؟ أم تكون خليلة

له لمعتادي شيوع المخادنة في الغرب بين الزوج ونساء منحلات أن تحذوا الزوجة حذو زوجها في مخادنة الرجال، واتخاذ العشاق، دون خجل أو حرج، وما عهد الناس بفضائح ولي عهد إنجلترا وزوجته ببعيد، وغيره من عظمائهم كثير، فهل مثل هذه المجتمعات هي التي تحكم على الإسلام وتحاكمه؟ إن الله هو المشرع للبشر، وهو خالقهم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾؟

العلاقة بين الزوجين:

الزواج شركة بين الرجل والمرأة، وهذه الشركة لابد أن يديرها مدير تكون له الكلمة في حسم أي أمر فيها، لما يتميز به من الحكمة وحسن التدبير، وقد جعل الله الرجل مديرًا لهذه الشركة؛ لأن الله هو الذي خلقه، وأودع فيه عقلاً أكبر وتدبيرًا أحسن، ولا ينقص ذلك من قدر المرأة شيئًا؛ لأن الله أعطاها هي الأخرى عاطفة أعمق، وإحساسًا أصدق وأقوى، وهذه القسمة بين الرجل والمرأة قسمة عادلة تتطلبها طبيعة الحياة في كل العصور، وفي كل الأماكن، فالرجل خلق للكدح والعمل والسعي في طلب الرزق، والمرأة خلقت للحمل والولادة ورعاية الطفل، فأعطى كلا منهما من المقومات البدنية والعقلية ما يلائم هذه الطبيعة، وقد ذكر القرآن قوامة الرجل على المرأة، وبين سر ذلك، وهو **أولاً**: تفضيل بعضهم على بعض - أي تفضيل الرجل على المرأة في أمر قيادة الأسرة بما وهبه الله من العقل وحسن التدبير، **وثانيًا**: بسبب إنفاق الرجل على زوجه وأسرته: قال تعالى: ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ (النساء: 34) وقد أوضح الله هذا المعنى وأكده في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (البقرة: 228) فقد أوضحت الآية أن لكل من الزوجة على زوجها،

وللزوج على زوجته حقًّا مماثلاً فإذا كان على الزوجة أن تحسن عشرة زوجها وتطيعه في الحضور والغيبة، فعلى الزوج أيضًا أن يحسن عشرة زوجته، ولا يكلفها أمرًا فوق طاقتها، وله عليها درجة، هي درجة القوامة، وإدارة شئون الأسرة.

وينبغي أن يفهم أن تفضيل الله للرجل على المرأة، ورفعه عليها درجة، إنما هو خاص بأمور الزوجية، وكل ما يتصل بشئون الأسرة، وأما فيما عدا ذلك فكما قال الله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ (النساء: 32) وكلٌّ يجزى على قدر عمله، لا فرق بين رجل وامرأة، وقد قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: 195) وكما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: 97).

فلا فرق عند الله بين الرجل والمرأة في ميزان الحسنات، ولا فضل للرجل على المرأة إليه بالعمل الصالح، ومع أن الإسلام جعل للرجل القوامة على المرأة في الزواج فلم يسلبها شخصيتها فظل لها اسمها كما كان قبل الزواج تعرف باسم أبيها ولقب أسرتها، على العكس من المرأة في الغرب التي تلغى شخصيتها فتعرف باسم زوجها ولقب أسرته، كما يبقى لها الإسلام ذمتها المالية لا شأن للزوج بمالها، وإن كثر وقل مال الزوج، بل على الزوج الفقير أن يستدين لينفق على زوجته الغنية، بينما كانت المرأة في الغرب حتى وقت قريب - وربما حتى الآن في بعض البلاد - تُلْغَى ذمتها المالية، ويختلط مالها بمال الزوج يتصرف فيه كيف يشاء.

وقد حث القرآن الكريم على حسن معاشرة الزوجة حتى لو كرهها زوجها فقد يكون فيها الخير الكثير، فتلد له الذرية الصالحة التي تقر بها عينه، وتحسن تدبير

معيشته فتحفظ عليه ماله إلى غير ذلك، قال تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: 19) وقد أكد الرسول (ﷺ) هذا المعنى في حديثه الصحيح فقال: «لا يَفْرَكْ - أي لا يبغض - مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر».

تأديب الزوجة الناشز:

إن من الزوجات - وهن الكثرة - من تخشى ربها، وتطيع أمره، فتحسن عشرة زوجها، وتحفظ سره، وترعى شئون بيتها بما فيه صلاحه، ولكن من الزوجات من تتمرد على زوجها، وتعصى أوامره، ويخشى خروجها تمامًا عن طاعته، فماذا يكون موقفه منها؟ شرع الله له تأديبها، ويمر هذا التأديب بثلاث مراحل متدرجة، إذا نجحت واحدة منها في تحقيق الغرض، فليس له أن يتعداها إلى غيرها، الأولى: هي النصح والإرشاد، وتخويفها غضب الله عليها إذا استمرت في عصيانها، وقد يكون من الوعظ العملي أن يكون قدوة لها في حسن الخلق ولين الجانب، فإذا لم ينجح الوعظ انتقل إلى مرحلة أقسى على نفسها، وهي الهجر في الفراش، فلا يكلمها حينما يأويان إلى فراشهما، ولا يداعبها، ولا يجامعها، والمرأة العاقلة تشعر بقسوة هذا الهجر فهو ضد طبيعتها التي خلقها الله عليها بأن تكون مرغوبة محبوبة، يسعى إليها الرجل، فكيف بها وهي بجواره، وعلى فراشه، ولا يأبه لها، ولا تثير مشاعره نحوها؟ فإذا فقدت القدرة على الفهم والتمييز، واستمرت في عنادها فلا مناص من اللجوء إلى المرحلة الثالثة وهي الضرب، ولكن اشترط المفسرون استنادًا إلى أحاديث الرسول (ﷺ) ألا يكون الضرب مبرحًا، فإذا ثابت المرأة إلى رشدها وامتثلت لأمر ربها في طاعة زوجها، فليس للزوج أن يسيئ إليها أدنى إساءة وقد خوف الله الزوج من عاقبة

البغي على زوجته بعد طاعتها بهذين الوصفين اللذين وصف الله بهما نفسه وهما العلو والكبر، فهو أعلى من كل إنسان وأكبر من كل إنسان، فلا يعجزه عقاب الخارج على أمره.

قال تعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾ (النساء: 34).

يقول المنافقون من أعداء الإسلام في الغرب، وأتباعهم من المنتسبين إلى الإسلام اسمًا: هذه هي الهمجية، كيف يأمر دين بضرب هذا المخلوق الرقيق: المرأة؟ ولو تركوا نفاقهم قليلاً ونظروا حولهم لعرفوا أن بعض النساء لا يصلحهن إلا الضرب، ولو تأملوا بعين الإنصاف لوجدوا أن الإسلام جعل الضرب المرحلة الأخيرة، وجعل قبلها مرحلتين فيهما رفق بالمرأة هما الوعظ والهجر في المضاجع، فإذا لم تصلحاها فلابد مما ليس منه بد، وحرص الإسلام على دوام العشرة بين الزوجين هو الذي حمله على الأمر بالضرب كحل أخير، وآخر الدواء الكي كما يقول المثل العربي، وليتأملوا قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾ فلم يجعل الهجر عامًّا بل جعله مقصورًا على المضجع كي لا يطلع أحد على سر الخلاف بين الزوجين مراعاة لشعور الزوجة على أن الإحصائيات الغربية تقول: إن نسبة كبيرة من الأزواج الغربيين يضربون زوجاتهم ضربًا مبرحًا، بل يقتلونهن أحيانًا، ولنتأمل أيضًا التعبير القرآني: ﴿تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ فهو يدل على أن عصيان الزوجة تكرر حتى أصبح يخشى أن يتحول إلى نشوز - أي خروج كامل على طاعة الزوج - ومفهوم ذلك أن الزوجة لا تؤدب هذا التأديب، إذا عصت أمر زوجها مرة أو مرتين دون قصد لشق عصا الطاعة.

فماذا يحدث لو لم تؤت هذه المرحلة التأديبية ثمرتها، واستمر النزاع والشقاق بين الزوجين؟ هنا يدعو القرآن إلى التحكيم، فيُختار حكم من أهل الزوج، وحكم من أهل الزوجة لبحث سبب الشقاق، ووسائل علاجه، وقد وعد الله الحكمين أن يمنحهما التوفيق في الحكم، والنجاح في رأب الصدع بين الزوجين إذا أخلصا نيتهما، وعملا على الإصلاح بين الزوجين، فهو عليم بالنيات مطلع على السرائر.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ (النساء: 35).

نشوز الزوج:

وماذا لو كان النشوز من الرجل؟ بأن يكون الرجل كارهًا لزوجته، وهي تود ألا يطلقها، أباح الله للمرأة في هذه الحالة أن تعرض على زوجها التنازل عن بعض مهرها، أو كله، أو تتنازل له عن بعض مزايا الزوجة من مبيت زوجها معها أو غير ذلك، وأباح للرجل أن يقبل ما تعرضه عليه زوجته من تنازل.

وقد فعلت هذا سودة بنت زمعة زوجة الرسول (ﷺ)، عندما تنازلت عن ليلتها - التي كان يبيتها الرسول لديها - لعائشة التي كانت أثيرة لدى الرسول، فقد خشيت سودة أن يطلقها الرسول (ﷺ) لكبر سنها، وهي حريصة على البقاء زوجة له.

فمن أجل دوام العشرة بين الزوجين أباح الله للزوجين أن يتفقا على أمر فيه صلاح لكليهما؛ فالزوجة تعطي زوجها بعض المال، أو تعفيه من بعض واجباته الزوجية نحوها، وللزوج أن يقبل هذا ويستفيد به.

وقد عقب الله على هذا الحكم بأن الصلح خير من الطلاق، أو من سوء معاملة

الزوج لزوجته، وبين الله ما تتصف به الطبيعة البشرية من ضَنٍّ بما لديها من مال أو مزايا، ففي هذه الحالة تحرص على مالها، لا تريد أن تبذله لزوجها وحريصة على حقوقها الزوجية، لا تود أن ينتقص منها شيء، والزوج حريص على ألا يرى ما يكره، أو يفعل ما لا يريد من معاشرة زوجة لا يريدها، أو مبيت معها، ويرغِّب الله الأزواج في إحسان معاملة المرأة، وتقوى الله في حقوقها، فهو خبير بكل ما يعملونه، وسيجازيهم عليه.

قال تعالى: ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: 128).

لم يجد القرآن الكريم حرجًا في أن يدخل في صميم العلاقة الخاصة بين الزوجين، وذلك ليجيب على أسئلة المؤمنين، ويرفع الحرج عنهم، فقد كان المسلمون في عصر الرسول (ﷺ) يراجعون الرسول في كل أمورهم، ويستوضحونه في كل شئون حياتهم، مهما كانت ضئيلة أو من طبيعتها الستر والكتمان؛ ليتأكدوا أنها تطابق الإسلام أَوْ لا، فكانوا يسألون الرسول (ﷺ)، ويجيبهم الله في القرآن عما يسألون عنه، فمن ذلك أنهم سألوا عن جماع الحائض، فقد شكوا فيه: هل هو حلال أو حرام؟ فقد هوتهم فطرتهم إلى أنه أمر قبيح فسألوا الرسول، فأجابهم الله بأن جماع المرأة في أثناء الحيض أذى للصحة، وأذى للذوق، وأمرهم باعتزال النساء طوال فترة الحيض.

وكانوا يستخدمون في الجماع طرقًا شتى، فخشوا أن يكون في بعضها ما يخالف الدين، فكانوا في حيرة من أمرهم، فهداهم الله إلى ما يريحهم، فأمرهم بأن يكون الجماع في محله الطبيعي، وهو الفرج، وبين لهم الحكمة في ذلك، وهي أن النساء كالأرض التي

تزرع، ووسيلة الزرع هي الجماع، فلابد أن يكون الجماع في المكان الذي يأتي بالثمرة، وبعد مراعاة ذلك فللزوج أن يأتي زوجته بأية طريقة شاء، ثم حث الله الرجال على طاعته، واتباع أوامره، ففي ذلك خير لهم يقدمونه لأنفسهم عند الحساب، ودعاهم إلى تقوى الله، فإنهم لابد أن يقابلوه ليحاسبهم، ودعا رسوله أن يبشر المؤمنين بالجنة، قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: 222، 223).

* * *

طرق إنهاء الزواج

يريد الله للزواج أن يستمر، ولكن طباع البشر قد تتنافر، ويحل الكره محل الحب، والخصام مكان الوئام، والشقاق بدل الاتفاق، وتستحيل العشرة بين الزوجين، فما الحل؟ الحل هو الطلاق، وقبل أن أتناول الطلاق أتحدث عن طريقين ذكرهما القرآن لإنهاء الزواج وهما الخلع والإيلاء.

الخلع:

وهو أن تدفع المرأة مالاً لزوجها ليطلقها، وذلك حين يزداد بغضها له إلى درجة تجعلها تقصر في إقامة حدود الله في شئون الزواج، فلا تطيع له أمرًا، وتمنع نفسها عنه، وتعلن كراهيتها له، في هذه الحالة أباح الله لها أن تفتدي نفسها منه بمال تعطيه إياه، وأباح للزوج قبول هذا المال، والاستمتاع به، وهي الحالة الوحيدة التي يجوز للزوج فيها أن يأخذ شيئًا من المهر الذي دفعه لها.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: 229).

ولنتدبر بعض العبارات الواردة في الآية، فقد عبر الله عن كراهية المرأة لزوجها التي تؤدي إلى عصيانها له بقوله تعالى: ﴿أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ ليؤكد أن طاعة المرأة لزوجها، وأدائها حقه، عليها حد من حدود الله لا ينبغي التهاون فيه، وقال: ﴿فَإِنْ

خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ ولم يقل «خافا» كما يقتضي السياق ليبين أن الخلاف بينهما أصبح معروفًا لمن يحيط بهما، وأصبح من واجبهم المساعدة، وأما التعبير بقوله «افتدت» فيدل على أن الزوجة إذا أحست بالبغض والنفور من زوجها أصبحت كالأسيرة وأصبح رباط الزوجية قيدًا يعوق حريتها، وأخيرًا يختم الله الآية بما يؤكد مضمونها وهو أن العلاقة الزوجية وواجباتها حد من حدود الله، وأن المهر الواجب للمرأة وعدم الأخذ منه إلا في هذه الحالة حد من حدود الله، ومن يتجاوز هذه الحدود فهو ظالم لنفسه ولدينه ويستحق جزاء الظالمين.

وقد حدث الخلع في عهد الرسول (ﷺ)، فقد جاءته امرأة ثابت بن قيس فقالت: «والله ما أعيب على ثابت في دين ولا خلق، ولكني أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بغضًا»، فقال: «أتردين عليه حديقته؟» وكان أعطاها إياها مهرًا، قالت: «نعم» فأمره رسول الله أن يأخذ منها حديقته، ولا يزداد، وفَرَّق بينهما.

ولنتأمل قولها: «ولكني أكره الكفر في الإسلام» فهي تعني أن معصيتها لزوجها الناشئة عن شدة كرهها له تعادل الكفر، وهي لا تريد أن تكفر بعد أن أسلمت.

الإيلاء:

وهو طريق آخر من طرق إنهاء الزوجية، وهو مأخوذ من الأَلِيَّة وهي القَسَم، وأصله أن يقسم الرجل ألا يجامع زوجته مدة محددة، أو غير محددة قد تصل إلى السنة والسنتين وأكثر، يريد بذلك إيذاءها ومضايقتها، فجاء القرآن بما يخفف عن المرأة هذا العبء فجعل للإيلاء – إذا حدث – مدة لا تزيد عن أربعة أشهر، فإذا انقضت هذه المدة، ولم يجامع الزوج زوجته، فإن رجع الزوج إلى زوجته في نهايتها، كفر عن يمينه، واستمرت الزوجية، وإن لم يرجع إليها طلقت منه.

قال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو [1] فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 226، 227).

ومعنى الآية أن أمام الذين يقسمون على عدم جماع زوجاتهم انتظار أربعة أشهر، فإن رجعوا فيها عن يمينهم فسيغفر الله خطأهم بحلفهم هذه اليمين ويرحمهم وإن لم يرجعوا فيها عن يمينهم اعتبر هذا عزمًا منهم على الطلاق، ونفذ الطلاق، والله سميع قد سمع قسمهم، وعليم علم عزمهم على الطلاق.

وقد آلى رسول الله (ﷺ) من نسائه شهرًا لإلحاحهن عليه في طلب زيادة النفقة، فلما انقضى الشهر عاد إليهن، وهذا يعني أن الإيلاء نوع من تأديب الزوجة إذا لم يجاوز الحد، ولم يصل إلى مرحلة الطلاق.

* * *

(1) رجعوا عن هجرهم.

الطلاق

وهو الطريق العادي المعروف لإنهاء عقد الزوجية، وقد ذكر الرسول (ﷺ) أنه أبغض الحلال إلى الله، فقد روى معاذ بن جبل أنه قال له: «يا معاذ، ما خلق الله شيئًا على وجه الأرض أحب إليه من العتاق - أي تحرير العبد من عبوديته - وما خلق شيئًا على وجه الأرض أبغض إليه من الطلاق»، ولكن لجأ الإسلام إليه لأنه دين البشرية، الذي يصلح لكل زمان ومكان، جاء من عند خالق الناس، والعليم بطباعهم وتقلبها وتنافرها، فشرع لهم الطلاق حتى تستقيم أمور الناس، ولا تصبح الزوجية قيد الإفكاك منه.

ولما كان الله عليمًا بالنفس البشرية، وتقلب أهوائها، ولعب العواطف بها كرهًا أو حبًّا، جعل الطلاق في يد الرجل الذي يحكم عقله أكثر من تحكيم عواطفه، ثم جعل فيه عدة فرص ليراجع فيها المرء نفسه، ولم يجعلها بغير حدود حتى لا يتخذ الطلاق لهوًا ولعبًا.

وينقسم الطلاق إلى: طلاق سنة، وطلاق بدعة، فطلاق السنة - والمراد بالسنة سنة رسول الله (ﷺ) التي أمر المسلمين بها - أن يطلق زوجته في أثناء طهرها - أي في الفترة بيـــن حيضتين - ولا يكون قد جامعها في هذا الطهر، وأما طلاق البدعة - أي المخالف لسنة الرسول - فهو أن يطلقها في أثناء الحيض، أو بعد أن يجامعها، وإن طلقها في هذه الحالة يؤمر بردها ثم يطلقها - إن شاء - في طهر لم يجامعها فيه،

والحكمة من تحديد الطلاق في أثناء الطهر الذي لا يحدث فيه جماع أمران: أولهما: أن حالة الطهر عند المرأة حالة مرغبة للزوج، فإن طلق فيها فهذا يدل على عزوفه عنها، وكذلك تطليقها دون أن يجامعها يدل على عدم رغبته فيها، وثانيهما: أن عدة المرأة تحسب من فترة الطهر - عند كثير من الفقهاء - فإذا طلقها في الحيض أطال عدتها، وكذلك إذا جامعها فقد يحدث حمل، فتطول عدتها إلى انتهاء الحمل، وقد فهم الفقهاء هذا وغيره من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴾ (الطلاق: ١).

فقوله تعالى: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ معناه أن الطلاق يحدث في الفترة التي تبدأ المرأة عدتها منها وهي «الطهر»، والخطاب في أول الآية موجه إلى النبي (ﷺ)، ويشمل جميع المسلمين، وأما العدة فسأذكرها بعد قليل.

والحكم الجديد الذي جاءت به الآية هو النهي عن إخراج المرأة من بيت الزوجية حتى تنقضي عدتها، والحكمة من ذلك واضحة، وهي ترغيب الرجل في مراجعة زوجته - التي تحل له مراجعتها في العدة - فهو يراها في دخوله وخروجه فإذا لم يراجعها في هذه المدة، دل ذلك على رغبته القوية في تطليقها.

ولكن هناك حالة واحدة يجوز للمطلق أن يخرج مطلقته فيها من بيته، وهي إتيانها بفاحشة ظاهرة واضحة، واختلفوا فيها فقيل إنها الزنى، وقيل هي الإفحاش على الرجل وأسرته بسوء القول والفعل، وهذا ما أرجحه، وقد اعتبر الله سبحانه عدم الالتزام بهذه الأمور تعديًا على حدود الله، ثم أشار إلى الحكمة من العدة ومن بقاء

المرأة في بيت زوجها بعد طلاقها بقوله تعالى: ﴿ لَا تَدْرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ أي قد يغير الله قلب الزوج فيتحول البغض إلى حب فيراجع امرأته.

ثم يذكر الله بعد ذلك أن المرأة إذا قاربت عدتها الانقضاء فللزوج أن يبقيها في عصمته على أن يكون الدافع إلى ذلك الرغبة فيها، لا المضايقة لها بأن يكون غرضه تطليقها بعد مراجعتها؛ لتضطر إلى قضاء عدة أخرى، أو يفارقها بالمعروف فيعطيها كل مستحقاتها من مهر ونفقة، وطلب الله أن يكون التطليق والمراجعة بشهادة رجلين مسلمين يتصفان بالعدالة وحسن السمعة، وأن تكون شهادتها لله لا رغبة في الإضرار بأحد من الزوجين أو التحيز له، ثم بين الله أن الذي ينتفع بهذا الوعظ هو الذي يؤمن بالله واليوم الآخر، وحث على تقوى الله في كل أمر فإن تقوى الله تفرج كرب المكروب، وتزيد في الرزق، وعلى التوكل على الله، ليكفي الله المتوكل كل ما أهمه، وليعلم الناس جميعًا أن أمر الله لابد أن ينفذ، وأن لكل شيء ميعادًا محددًا يحدث فيه.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ (الطلاق: 2، 3).

وقريب من معنى الآيتين السابقتين قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 231) ففيه التخيير.

قرب انقضاء العدة بإبقاء الزوجة بالمعروف أو تسريحها بالمعروف، وزاد في هذه الآية التصريح بالنهي عن أن يكون إبقاؤها رغبة في الإضرار بأن يطيل عدتها، أو يضطرها إلى افتداء نفسها بالمال، وقد وصف من يفعل ذلك بأنه ظالم لنفسه، واعتبر عدم تطبيق ما شرعه الله في الطلاق والعدة أنه استهزاء بآيات الله، وذكر المسلمين بنعمة الله عليهم بالإسلام الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، فعليهم أن يلتزموا بما أنزله عليهم من الكتاب الحكيم – وهو القرآن – الذي يوجههم ويرشدهم، وختم الآية بالدعوى إلى تقوى الله، وتذكير المسلمين بأن الله يعلم كل شيء، فيعلم نية المسلم في تطليقه، وفي مراجعته زوجته.

عدد مرات الطلاق:

الله يريد دوام العشرة بين الزوجين، فأتاح للمتعجل في إنهاء الزواج بالطلاق فرصتين من حقه فيهما أن يراجع زوجته، قبل انقضاء عدتها، وعليه إذا أبقاها أن يحسن عشرتها، وإذا بتَّ الطلاق أعطاها مهرها ونفقتها، ولا يحل للمطلق أن يأخذ شيئًا من مهر الزوجة إلا في حالة الخلع – كما سبق ذكره – فإذا طلقها الطلقة الثالثة لم يكن من حقه أن يراجعها، ولا يحل له الزواج منها إلا بعد أن تتزوج زواجًا طبيعيًّا، ثم تطلق من زوجها لأمور لا علاقة لها بزوجها الأول، فيستطيع أن يتزوجها برضاها وبمهر جديد، ويعتبر زواجًا جديدًا للزوج فيه ثلاث تطليقات، وقد اشترط القرآن لإتمام هذا الزواج أن يغلب على ظنهما أنهما قادران هذه المرة على حسن العشرة، وإدامة الزواج، ثم يعقب الله على ذلك بالتعقيب الذي يذكره بعد الأمور الهامة وهو أن هذه الأمور حدود الله لا ينبغي تجاوزها، ويبينها الله لمن لديه علم وفهم.

قال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن

تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 229، 230).

وأود أن أقرر أن ما يفعله عامة الناس بشأن المحلِّل، فيأتون برجل يزوجونه المطلقة ثلاثًا، ويوصونه بألا يقترب منها - حرام، ولا تحل الزوجة لزوجها بهذا الزواج، فإن تزوجها فالعلاقة الجنسية بينهما زنى، ويكون كل منهما ملعونًا بنص الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن مسعود قال: «لعن رسول الله (ﷺ) المحلِّل والمحلَّل له»، وفي حديث آخر اشترط الرسول (ﷺ) تحل المرأة لزوجها الأول أن يستمع بها الزوج الثاني جنسيًّا قبل تطليقها، فقد قال (ﷺ): «إذا طلق الرجل امرأته ثلاثًا لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره ويذوق كل منهما عُسَيْلَةَ صاحبه»، والمراد بالعسيلة المتعة الجنسية.

وهذا الرأي هو الذي عليه جمهور العلماء، ولبعضهم آراء أخرى ليس هنا محل تفصيلها.

ثم يذكر القرآن بعد ذلك أن المطلِّق والمطلقة من حقهما الزواج مرة أخرى بعد انقضاء العدة، ونهى أولياء الزوجة عن أن يقفوا في طريق هذا الزواج، فيمنعوا المرأة من زواجها بمطلقها طالما رضيا بذلك ولم يكن وراء الزواج غرض ظاهر يسيئ إلى المرأة، وختم هذا النهي ببيان أن هذا الوعظ والتوجيه من الله لا ينتفع به إلا من دخل الإيمان بالله واليوم الآخر قلبه - وذلك حث لأولياء الزوجة على ألا يمنعوا هذا الزواج - ثم حثهم على ذلك ثانية ببيان أن هذا الزواج أزكى وأطهر للجميع، والله يعلم وهم لا يعلمون، فعليهم اتباع أوامره.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: 232).

يقول المفسرون إن هذه الآية نزلت في حادثة معينة وهي أن أحد الصحابة واسمه معقل بن يسار كانت له أخت وكانت متزوجة من رجل يقال له «أبو البزاخ» فطلقها وتركها حتى انقضت عدتها، ثم ندم فخطبها فرضيت وأبى أخوها أن يزوجها وقال لأخته «وجهي من وجهك حرام إذا تزوجته» فنزلت هذه الآية، فدعا رسول الله (ﷺ) معقلاً وقال له: «إن كنت مؤمنًا فلا تمنع أختك عن أبي البزاخ» قال: «آمنت بالله وزَوَّجها منه»، والحكم عام لجميع المسلمين.

العدة:

فرض الله على من يفارقها زوجها بالطلاق أو الموت عدة، أي مدة لا يمكنها الزواج بغيره إلا بعد مضيها، وذلك لتكون هناك فترة يراجع فيها الزوج نفسه، فقد يعيد زوجته إليه، وكذلك للتأكد من خلو الرحم من الحمل.

وتختلف العدة باختلاف الزوجات، فالمرأة التي تحيض لها عدة، والمرأة التي يئست من المحيض، أو التي لم تحض بعد لها عدة غيرها، والمتوفى عنها زوجها لها حكم مخالف، والحامل لها عدة مغايرة، وقد ورد تفصيل كل هذا في القرآن الكريم.

عدة التي تحيض:

المرأة التي تحيض عدتها ثلاثة قُروء، واختلف الفقهاء في القُرء قال بعضهم هو الطهر، وقال آخرون هو الحيض، فعلى المرأة أن تنتظر بعد طلاقها حتى تطهر من

حيضها ثلاث مرات، أو حتى تحيض ثلاث مرات، وللمرأة أن تأخذ بأي التفسيرين، والأحوط أن تنتظر المدة الأطول، وقد حث الله النساء ألا يكتمن حقيقة ما يعتري أرحامهن من حيض أو طهر، إن كنَّ قد آمن بالله إيمانًا صادقًا واليوم الآخر (نلاحظ أن الله يقرن الإيمان به بالإيمان بالآخرة وذلك للتذكير بالحساب والثواب والعقاب) ولأزواجهن الحق في فترة العدة في مراجعتهن، وهذا خير وأصلح على شرط أن يكون الهدف من مراجعة الزوجة الإصلاح لا المضارَّة، وعند عودة رباط الزوجية يكون لكل من الزوجين حق متساوٍ في حسن العشرة، والمعاملة الطيبة، وإن كان للرجل حق أكبر ماله من حق القوامة ورياسة الأسرة، والله عزيز حكيم.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: 228).

وإذا انقطع حيض المرأة لكبر سنها تكون عدتها ثلاثة أشهر، وكذلك المرأة التي لم تحض بعد لصغر سنها، أو لمرض يمنع الحيض.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ﴾ (الطلاق: 4) وقوله: «إن ارتبتم» وقوله: «إن ارتبتم» أي شككتم وجهلتم حقيقة الحكم.

عدة الحامل:

والمرأة الحامل عدتها أن تضع حملها، ولو بعد لحظات من الطلاق؛ لأن الهدف الأساسي من العدة استبراء الرحم، والتأكد من عدم حمل المرأة وبوضع الحمل لم يعد هناك داع لانتظارها.

قال تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: 4).

عدة المتوفى عنها زوجها:

وإذا مات الزوج، ولم تكن زوجته حاملاً، فعلى الزوجة أن تعتدَّ أربعة أشهر وعشرة أيام حدادًا على زوجها، واستبراء لرحمها، أما إذا كانت حاملاً فعدتها وضع حملها كالمطلقة، فإذا انتهت هذه المدة فللمرأة الحق في التزين والتعرض للخطاب بطريقة لا تجافي الكرامة، ولا تخدش الحياء.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (البقرة: 234).

وقد وردت بعد ذلك آية تخص المتوفى عنها زوجها، وتخالف هذه الآية في تحديد الزمن هي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (البقرة: 240).

فالآية تطلب من الزوج أن يوصي قبل وفاته أن تظل زوجته في بيته مع أهله متمتعة بكل حقوق الأسرة من مأكل وملبس لمدة حول، أي سنة من تاريخ الوفاة، فإن خرجت برضاها فلا إثم على أحد من المسئولين عنها سواء أكان من الأسرة أم من المجتمع فيما تفعله في نفسها من تزين وتعرض للخطاب، دون خروج على حد اللياقة.

ولنلاحظ التعبير في الآيتين بقوله تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ وكذلك في

آيات سابقة فالخطاب موجه إلى جماعة المسلمين؛ لأن الإسلام يعتبر المسلمين كلهم أسرة واحدة تسمى لخير أفرادها، وتألم لما يصيبهم من ضرر.

وكثير من المفسرين يرى أن الآية الأولى نسخت الآية الثانية، ويرى بعضهم أنه يمكن التوفيق بين الآيتين، فالآية الأولى تبين العدة المفروضة على زوجة المتوفى، والتي لا يجوز لها فيها أن تتزين أو تتعرض للخطاب، والآية الثانية تضيف تكريمًا للمرأة، وهي أن تبقى في بيت زوجها متمتعة بالسكنى والنفقة إلى نهاية الحول، ولا يحق لأهل زوجها أن يخرجوها من بيت زوجها حتى ينتهي الحول، لكن إذا شاءت هي أن تخرج برضاها قبل نهاية الحول فلا بأس عليها ولا إثم، ثم يلحق أحدًا من المسئولين عنها فيما تفعله بنفسها من معروف طالما قد انتهت عدتها المفروضة وهي أربعة أشهر وعشرة أيام[1].

خطبة المتوفى عنها زوجها:

لا يجوز أن تخطب المرأة المتوفى عنها زوجها وهي في العدة، ولكن لا بأس من التعريض والتلميح، كأن يذكر الرجل أمامها أنه في حاجة إلى الزواج من امرأة صالحة وغير ذلك من العبارات التي لا تجاوز حدود اللياقة، فقد ذكر الله أنه لا إثم على الرجل فيما يذكره من تعريض بخطبة المرأة المتوفى عنها زوجها، أو بالنية المستترة في نفس الرجل من إرادة الزواج بها، فالله يعلم أن بعض الرجال الذين يريدون الزواج سيفكرون في مثل هذه المرأة، ويرغبون في نكاحها ولا بأس في ذلك، ولكن المنهي عنه هو وعدهن صراحة بالزواج منهن بعد انقضاء العدة، وقد منع الله أن يعقد الزواج إلا بعد انقضاء العدة، وحذرهم الله من ذلك ببيان أنه يعلم ما في نفوسهم، فليحذروا غضبه عليهم إذا خالفوا أمره، ثم يطمئنهم بأن الله غفور يمحو ذنب من أخطأ ثم

(1) سيد قطب: (في ظلال القرآن).

تاب، وحليم لا يعاجل بعقوبة المخطئ ليترك له فرصة التوبة.

قال تعالى: ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (البقرة: 235).

والحكمة واضحة في تحريم الخطبة في أثناء عدة المتوفى عنها زوجها وهي:

أولاً: مراعاة شعور أهل الميت كي لا يروا زوجة قريبهم يسعى إليها الخطاب بعد أيام قليلة من وفاته.

وثانيًا: كي لا تؤدي الخطبة في أثناء العدة إلى اتصال الرجل بالمرأة الذي قد ينجم عنه وقوعهما في الإثم.

حكم المطلقة قبل الدخول:

يختلف حكم المطلقة قبل الدخول عن المطلقة بعد الدخول في المهر والعدة، فإذا طلق الرجل زوجته التي عقد عليها، قبل أن يدخل بها، أي قبل أن تتم المعاشرة الزوجية فإذا لم يكن حدد لها مهرًا، فلا بأس بهذا الطلاق إذا كانت هناك ضرورة اقتضته وعلى الزوج أن يدفع لها مبلغًا من المال – وهو المتعة، تطييبًا لخاطرها، وجبرًا لوحشة الفراق، على قدر حال الرجل في الغنى والفقر، الموسر بقدر يساره، والمعسر بقدر إعساره، تمتيعًا لهن بالمعروف، وهذه المتعة حق للمرأة على المؤمنين المحسنين، قال تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: 236).

وأما إذا كان قدر لها مهرًا، ثم طلقها قبل الدخول، فعلى الزوج أن يترك نصف المهر لها، إلا إذا تنازلت له عنه عن طيب خاطر، أو تنازل له عنه وليها، وقد بين الله أن التنازل عن حق الزوجة في نصف المهر أقرب إلى التقوى، وحث الله المسلمين على أن يسود بينهم الجميل والإحسان، فالله مطلع على كل أعمالهم، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: 237).

وهنا رأي آخر لبعض المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ﴾. فالمتبادر إلى الذهن أنه ولي الزوجة إذا كانت صغيرة، ولكن قال بعضهم ومنهم ابن جرير: إنه الزوج فهو الذي بيده عقدة النكاح، ويكون المراد بعفو الزوج، أن يسامح في حقه في النصف فيترك المهر كله للزوجة، وكذلك الضمير في قوله: «وأن تعفو أقرب للتقوى» قالوا إنه عام يشمل الزوج والزوجة، فلكل منهما أن يسامح في نصيبه، ومن يسامح فهو أقرب للتقوى.

وأما العدة فليس للمطلقة قبل الدخول عدة، وذلك لأن العدة هدفها الأساس استبراء الرحم للتأكد من خلوه من الحمل، والمطلقة قبل الدخول لا حاجة لها بذلك، وقد ذكر الله أن المسلمين إذا تزوجوا، ثم طلقوا نساءهم قبل أن يمسوهن، فليس لهم حق في أن تعتد الزوجة بعد الطلاق، لعدم وجود سبب لذلك، فعليهم أن يعطوهن حقهن في المتعة، وأن يتركوهن بطريقة تليق بالدين والمروءة، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب: 49).

حقوق المطلقات:

للمطلقات في فترة العدة حقوق على أزواجهن ذكرها القرآن الكريم وهي:

1- استيفاء المهر كاملاً: قد يؤجل جزء من المهر أو كله، فإذا حدث الطلاق يجب إعطاء الزوجة مهرها كاملاً، وقد شدد الله في ذلك - كما سبق أن ذكرت.

2- النفقة وتشمل الطعام والكسوة والسكنى، ويكون الإنفاق على قدر حال الزوج من الغنى والفقر، فعلى الغني أن يوسع في الإنفاق على مطلقته، وأما المقتر - وهو ضيِّق الرزق - فينفق بقدر ما تسمح له ظروفه المالية، فالله لا يكلف أحدًا إلا على قدر ما أعطاه، والفقير لا يدوم فقره، فسيرزقه الله، ويوسع عليه بعد الضيق.

قال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (الطلاق: 7).

وكذلك الشأن في السكنى فإن كان المطلِّق غنيًّا أسكن مطلقته في البيت الذي يسكنه، أو أحد البيوت التي يملكها، وإن كان فقيرًا أفسح لها مكانًا في مسكنه على قدر ما يستطيع، وقد حذر الله الأزواج من محاولة الإضرار بالزوجة في أمر السكن فيضيق عليها فيه، وينزلها منزلاً لا يناسب وضعه المالي والاجتماعي وغرضه من ذلك أن يحملها على الخروج، والتنازل عن حقوقها، قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ﴾ (الطلاق: 6).

ويدخل في النفقة الواجبة على الزوج لمطلقته أجر رضاعة ابنه منها إذا كانت والدة، وقد جعل الله الحد الأقصى للرضاعة سنتين كاملتين، وعلى الأب أن ينفق على الوالدة والمولود ما يكفيهما على قدر طاقته، فيعطي الأم من المال وليكفي حاجاتهما

من طعام وكسوة، بالطريقة المتعارف عليها في بيئته التي يعيش فيها، وعلى حسب مستواه الاقتصادي، ويقرر الله أنه لا يفرض على أحد نفقة إلا على قدر طاقته، وحذر من أن يحاول أحد الطرفين الإضرار بالآخر بأن يستغل الزوج حب الأم لوليدها، فينقصها أجرها أو يحرمها منه أو يعطي الرضيع لامرأة أخرى ترضعه دون رضا الأم، ثم بين الله أن الوالد إذا مات انتقل حق الإنفاق على الوالدة من الورثة الذين ورثوا ماله، الأقرب فالأقرب، ثم ذكر الله أن الوالدين إذا رأيا أن المصلحة في إنقاص مدة الرضاعة للطفل عن عامين، وتشاورا معًا في هذا الأمر وارتضياه فلا إثم عليهما، وكذلك إذا كانت المصلحة تقتضي أن يستأجر الوالد مرضعة لابنه، لعجز الأم عن الإرضاع لسبب ما، فلا إثم عليهما، بشرط أن يعطي الأب الأجر للمرضعة دون مضايقة لها أو مماطلة أو بخس، ويختم الله الآية بدعوة المسئولين عن ذلك من الأب والأم بتقوى الله، وتجنب سخطه في شأن الرضاعة؛ فالله مطلع على كل أعمالهم، وسيحاسبهم عليها.

قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: 33).

وقد ذكر الله ذلك مرة أخرى في سورة «الطلاق» فأمر الرجال أن يعطوا المطلقات أجر الرضاعة إذا أرضعن لهن أولادهم، وطلب من الرجل ومطلقته أن يتعاونا في هذا الأمر، ويسامح كل منهما الآخر، فلا يقتر الرجل في أجرة الرضاعة، ولا تعد

الأم على أجر يُعْجز الرجل، أو ترفض إرضاعه مضايقة لأبيه، ثم يُذَكِّر الله المرأة أنها هي التي ستَخسر إذا تعنتت مع الرجل؛ لأن الرجل سيبحث عن أخرى لترضع ابنه، فتحرم الأم من ابنها.

قال تعالى: ﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾ (الطلاق: 6).

3- المتعة: وهي قدر من المال يعطى للزوجة بعد طلاقها تطييبًا لخاطرها، وجبرًا لوحشة الفراق، وقد ذكرت قبلُ الآية التي تأمر بإعطاء المطلقة التي لم يدخل بها زوجها، ولم يُسَمِّ لها مهر المتعة، ولكن هناك آية أخرى تدعو إلى إعطاء المطلقات جميعهن المتعة دون تخصيص وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: 241) ويقول المفسرون إن هذه الآية قد نسخت بآية النفاق ويرى آخرون منهم أن هذه الآية لم تنسخ، وأن المتعة تجب مع النفقة، وهذا الرأي أخذ به قانون الأحوال الشخصية الجديد.

وبعد، فهذا هو الطلاق الذي يعتبره المنافقون من أعداء الإسلام في الغرب، ومن يدور في فلكهم من المنتسبين للإسلام، ولاسيما بعض النساء المتحذلقات - وصمة في جبين الإسلام -، وينسون أنه لا توجد دولة في العالم، لا يحدث فيها الطلاق، فليس من طبائع البشر أن يعيش كل رجل وأنثى ارتباطًا بالزواج متحابين منسجمين بل لابد أن توجد نسبة - ولو ضئيلة إلى أقل مدى -يسود الزوجين فيها الشقاق والنفور فلو أغفل المشرع هذه النسبة، وأسقطها من حسابه، فماذا يكون حال الزوجين؟ إما أن يمتثلا لأمر المشرع، ويعيشا معًا عيشة يتمنى فيها كل واحد منهما موت صاحبه، وقد يضيق الأمر بأحدهما فيتخلص من الآخر بالقتل أو الهروب أو الارتداد عن دينه

إلى دين يجد فيه فسحة الطلاق، وكل هذه الأمور قد حدثت كثيرًا وقرأها الناس أو سمعوا بها، وإما أن يتخذ كل منهما خدينًا، أو أحدهما في السر أو في العلن فتصبح العلاقة الزوجية سفاحًا وزنى.

ولكن رب الخلق – وهو يعلم ما خلق – شرع الطلاق – وإن كان لم يرحب به كما ذكرت في أول الفصل – ليصلح الخطأ الذي وقع فيه الزوجان، ولم يعرفاه إلا بعد العشرة بينهما، وجعل أمره بيد الزوج – وهو الأحكم والمحكِّم لعقله في أموره أكثر من عاطفته، وهذه هي فطرته التي فطره الله عليها، وهذا هو الأعم الأغلب في الرجال، ولكن هذا لا يمنع أن بعض الرجال فيه هوج وحدة عاطفية، وتسرع في اتخاذ القرار، ولكن القوانين توضع للأعم الأغلب وليس للحالات القليلة.

ولم يجعل الله الطلاق بيد الزوجة لتحكم عاطفتها في أمورها أكثر من عقلها وهذا هو الأعم الأغلب أيضًا.

كما لم يجعل أمره إلى القاضي، فهذه علاقة خاصة جدًّا بين الزوجين، فلا تفضح في ساحات المحاكم، وتصبح عودة الحياة الزوجية بين الزوجين أمرًا مستحيلاً، بعد ما امتلأت النفوس بالسخيمة، وملأ القلوب البغض والحقد بعد ما قيل ونشر.

كما أن تعدد مرات الطلاق، وإعطاء الزوج حق المراجعة في العدة كفيلان بإصلاح ما فسد، وإعادة الأمور إلى نصابها.

إن أي عاقل لم يسيطر على فكره التعصب والهوى، ونظر إلى موقف الإسلام من تعدد الزوجات، وإباحة الطلاق نظرة منصف لأدرك أن مثل هذين التشريعين لا يمكن أن يهتدي إليهما بشر، بل لابد أن تكون وحيًا من خالق البشر.

* * *


الحمد لله